

فنون الأدب العربي

الفن الغنائي

٥

الفخر والحماة

بقلم
حنّا الفاخوري



دار المعارف



Bibliotheca Alexandrina

89

الفخر والحماة

فنون الأدب العربي
الفن الإنشائي
٥

الفخر والحماة

الطبعة الخامسة



دار المعارف

مقدمة

الفخر من أدل فنون الأدب على فطرة الإنسان ، فهو صدى تطلع النفس إلى ذاتها ، والتعبير عن الأثرة أشد النزعات فيها . والإنسان ، كما لا يخفى ، سجين ذاته منذ الولادة ، يديم النظر في مرآتها ، مستجلباً محاسنها ، صابغاً قبائحها بما يجعلها في ميزانه دون قبائح الناس أجمعين ، مقارناً فيما بينها وبين غيرها ، وهذا الإيثار للنفس ، إذا تجسم في عبارات شعرية ، كان الفخر وكان الحماسة .

والفخر هو تعداد الصفات وتحسين السيئات ، وهو رفيق الآداب كلها منذ كان للشعوب آداب ، وهو عند العرب باب واسع من أبواب شعرهم ، يعبر عن ميلهم الطبيعي إلى الأنفة والعزة ، كما يعبر عن انتفاخ أعصابهم تحت تأثير العوامل الجوية والطبيعية ، وانطلاقها النباض وراء الآمال والدرى .

والذات في الفخر ذات وتمددات للذات ، من خلال خلقية وخلقية ، ومن أصل ونسب ، وحزب ومذهب ، وأعمال وأقوال ، ومواقف كرامات وبطولات ، وما إلى ذلك مما لا نهاية له . والفخر من ثم أنواع : فخر ذاتي ، وفخر حزبي ، سياسي ، وفخر ديني ، وفخر حربي .

أما الفخر الذاتي فهو ما دار حول العقل والقلب واللسان والساعد ، وما دار

حول القبيلة والآباء والأجداد . وأما الفخر الحزبي فهو لسان الحزب ينطق بحقوقه وطموحه ، وينشر تعاليمه وآراءه ، ويهدف إلى الامتداد والاستيلاء ، وقد ازدهر منذ فجر الإسلام وعلا نجمه في العهد الأموي ، وذلك لقيام الأحزاب المتناحرة من أمويين وعلويين وزبيريين وخوارج وغيرهم من سبأى الكلام عنهم في محله . وأما الفخر الديني فقد ظهر خصوصاً مع الإسلام ورافقه في قنوحه وانتشاره ؛ وأما الفخر الحزبي فهو شعر الحماسة ، والحماسة نشأت مع العربي منذ كان ، ومنذ ارتقى في أحضان طبيعة قاسية جعلته غرضاً لأحداث الزمان ، ونكبات الأحداث ؛ وقد فطر العربي لذلك على الشجاعة والقتال ، وأصبح القتال جزءاً من حياته الطبيعية ، وطالما نشبت الحروب عند العرب ، وشبت الثورات الدامية ، فن حرب الأوس والخزرج ، إلى حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان ، إلى حرب البسوس بين بكر وتغلب ، إلى حروب اليمن وعدنان ، إلى حروب الفتوح التي امتدت ميادينها من حدود الصين إلى بحر الظلمات ، إلى قلب أوربة ، إلى الحروب المختلفة التي رافقت العرب في ميادين عملهم ، والتي فجرت القرائح ، فتدفقت بسيل ملحى مختلف زانحر بالبطولة والعزة .

ولما كان الفخر والحماسة من نتاج العاطفة الشديدة ، والانفعال العميق ، فقد حضلا بالمغالة ، وانطلق فيهما الخيال مضخماً مهولاً ، وبرزت فيهما الحقائق التاريخية مجلبة بجلباب العاطفة والخيال ، واشتدت فيهن الأساليب الكلامية والألفاظ والحروف اشتداداً هداراً ، يرافق انفجارات النفوس واصطخابات القلوب ، كما يرافق في مجالات القتال صهيل الخيول ، وقعقات الأسلحة ، وجلبات المتن .

٧

وإننا سنلزم في دراستنا هذه جانب الإيجاز ، مقتصرين على الخطوط
الكبرى ، مبينين المعالم والأطوار ، لا يهملنا من الأدباء إلا من مثل طوراً ، ومن
الأحداث إلا ما كان عاملاً قوياً من عوامل التطور ، ومن الميزات الأدبية
إلا ما كان بارزاً شديد البروز .
والله ولي التوفيق .

حنا الفاخوري

الفصل الأول

الفخر الذاتي

قلنا في مقدمتنا إن الفخر الذاتي هو ما دار حول الشاعر في نفسه وفي آيائه وأجداده . وهذا كثير في الأدب العربي لا يكاد يخلو منه ديوان ، وذلك أن العربي نزوع من فطرته إلى العلاء ، ميال إلى التعالي والمباهاة ، شديد الاندفاع بما في نفسه من نزعات ، والتغنى بما فيها من حسنات ؛ شديد التطلع إلى ما مضى من الزمان وإلى مآثر الآباء والأجداد ، وهم في نظره هو عاملاً بأيديهم ، مفكراً بعقولهم ، باذلاً بأسفهم ، رافعاً مدا ميك المجد بأناملهم الزهراء ، قائلاً أروع القول بالسنتهم البليغة . وللصحراء الحديبة يد فعالة في تطلب ما لا يوجد ، وفي استثارة الهمة لنيل المثل العليا ؛ وللأخطار والضيقات يد فعالة في تنزي الطموح وتوثيه إلى اللدري ؛ ولهاجمة العناصر وقوى العدو الغازي أو المستعمر يد فعالة في اهتزاز الأعصاب واستحثاث الغضبة الكبرى ، التي تنفجر مفاخر لا يحدها من انطلاقها حد ، والتي تتسلح بأجنحة الخيال المضحك ، وتلوم في أجواء تناطح غوارب المستحيل .

والأخلاق والعادات تماشي ، عند كل أمة ، حاجاتها وصور معيشتها ، ومن ثم كانت الأخلاق والعادات التي فخر بها العرب ثمرة حاجاتهم وصور معيشتهم ، وقد فخرُوا بكرم العنصر ، وقوة العصبية ، ومنعة الجانِب ، والشجاعة ، والكرم ، والإباء ، والوفاء ، والمرؤة ، وما إلى ذلك مما كان شأنه عندهم عظيماً . ثم فخرُوا بالتعقل ، والفيض الشعري ، وحسن الصياغة ، والجمال الفني ، وما إلى ذلك مما سنأتي على ذكره فيما بعد .

عاش العرب ، أول ما عاشوا ، في بلاد تعددت صحاريها . وقل ماؤها ،

واتسعت أراضيها المجذبة ، وتسלט عليها الحر والسموم ، فكانوا في أكثرهم بدواً يسكنون الخيام وينصرفون إلى رعى الإبل والشاء ، لا يقيم غير سواعد قوية وقلب جرىء وتضامن قبلي ، ومن ثم كانت الشجاعة أغنية آمالهم ، وكانت القبيلة محط رحالهم يرتكز عليها نظامهم الاجتماعي ، ويتعصبون لها أشد التعصب .

ولما كانت الحياة في البادية معرضة لقسوة السماء والأرض ، يلوح فيها شبح الفاقة كل حين ، عظم شأن الكرم عند العرب ، وهو سبيل العيش لفئة كبيرة من الناس ، وراح الشعراء يتغنون به ، ويفخرون بالبدل والعطاء ، ويفخرون أنهم يعطون على البديهة ، وأنهم يسرعون في البدل وإن جهلوا السائل ، وأنهم يتהלون إذا جاء الطالب وأتاح فرصة للعطاء ، وأنهم يرجون بالضيف ويقدمونه على الأهل والولد ، ويوقدون له نار القرى ليلاً على البجبال والرّبي ، ويعودون كلهم أن ينبج للضيفان فيبتدوا بصوته ، إلى غير ذلك مما لا حصر له .

والحياة في البادية حياة فطرة وصفاء طبيعة ، ومن ثم مال العرب إلى الحلم والإباء والشرف ، وراحوا يتغنون بكرم قلوبهم ، وترفعهم عن الفحشاء ، وتنكرهم للعار والصغار ، وتواضعهم وحياتهم ، وعفويهم عند المقدرة ، كما راحوا يتغنون بثورتهم في وجه الإهانة ، وصلابتهم في طلب الثأر .

والحياة في البادية حياة ترحل وتنقل ، لا يقيدتها قيد قانون ، ولا قوة منفذة . ولا محاكم ولا شرطة ، ولذلك كانت كلمة الشرف قانون الحياة ، وكان الوعد الصادق سنة المجتمع ، وكان الوفاء عند العرب من أقدس الأمور ، والغدر ونقض العهود من أحقرها وأبغضها إلى النفوس ، ولهذا تغنى الشعراء بالوفاء ، وأشادوا بذكر الأوفياء .

والحياة في البادية حياة فروسية يعمل الأبطال فيها على حماية المستضعفين والباثسين ، ونجدة الملهوفين ، وإغاثة المحروبين ، وقد تغنى الشعراء من ثم بحفظ الجار وإعزاز جانبه ، وبتبليية دعوة المكروبيين في الحرب ، وبفك

العانى الذى أسر ، وبالدفاع عن المرأة ، وبكل ما هو من ميزات الفروسية الحق التى ترفع الإنسان إلى درجة عالية من السمو والكمال .

تلك كانت الحياة فى البادية ، وتلك كانت الخلال التى فخر بها الشعراء .

ولما جاء الإسلام جمع كلمة العرب ونقل حياتهم من فردية قبلية إلى قومية عربية ، ونظم شؤونهم الاجتماعية ، وتناول أصولهم الأخلاقية وهذبها ونماها ووجهها فى طريق الاستقامة والفضيلة والخير ، ولبت الشعراء يفخرون بها مصطبغة بالصبغة الإسلامية ، ويزيدون ما توحى به البيئة الجديدة والدين الجديد . ولما كان العهد العباسى حيث نقلت ثقافة العالم القديم إلى العرب ، وانتشرت فى ديارهم الحركة العلمية ، وشاع فيهم التحصيل العلمى والسعى فى تركيز المعلومات ، وسن قوانين الكتابة والصناعة ، زاد الشعراء على مفاخرهم ما أوحى به البيئة الجديدة ، فراحوا يتغنون بالشاعرية والعقل واللباقة فى استنباط المعانى ، كما راحوا يتغنون بالدوق فى التنصيد والزخرفة وما إلى ذلك . ولبت تلك الحركة الفخرية على حالها من ناحية الموضوعات والأساليب إلى منتصف عهد النهضة ، وقد تقلص ظلها شيئاً فشيئاً بازدياد الوعي وتطور الحضارة . وإليك نظرة تاريخية تحليلية فى أشهر شعر الفخر الدائق على ممر العصور .

الفخر الدائق فى الجاهلية

نبت الفخر فى الجاهلية نبثاً تلقائياً من نفوس تهوى العزة والمجد ، وقد ساعد عليه ما كان هنالك من أسواق تبسط أمام القبائل ميادين قول ومفاخرة ؛ ومن مواقف منافرة تقوم بأن يدافع شاعر محكم عن أحد سيدين متخالفين ، فينفره على خصمه ومنازعه ويفضله عليه مبيناً ما له من فضائل وحسنات ؛ ومن مجالس أدب كان العرب يجتمعون فيها لمناشدة الأشعار ومبادلة الأخبار ، وكانوا يسمونها أندية ، وكان لكل ناد فناء يزدحمون فيه للتناشد والتفاخر .

١ - فخر الصعاليك :

للصعاليك في الأدب العربي فخر هو عصارة البادية وخلاصة النفس العربية الأصيلة . فتأبط شراً هو البادية في بداءتها . وقسوتها ، في شظف عيشها وانطلاق حريتها ، في هربها من النفس إلى النفس ، في سداجتها العذبة وفي ماديتها اللاحقة بالأرض . وهو رجل الانفرادية الذي لا يصحبه إلا « العمانى الأقل » ، ورجل الحزم الذي يقرن الشجاعة إلى القطنة ، والإقدام إلى الحكمة ، فيحتال على الأيام ويبعث النظر رائداً للعمل ، فهو « للقصد يبصر » وهو « إذا سد منه منخر جاش منخر » ، وهو « شرى » للعدو و « أرى » للصديق . والحرية الجاهلية من أقدس الأمور لديه فهو يؤثر الموت على ذل الأسر والقيد ، إلا أن الموت لا يناله بل « يبقى خزيان ينظر » فيغلب على الموت بالحزم ، ويفلت من القيد بالحيلة . فهو أبدأ يقظان يحسب لكل شئ حساباً ، وهو أبدأ رجل الشخصية القوية والثقة بالنفس . وهو على فقره وتشرده كريم جواد يقرى الضيف صيف شتاء ، ويؤثر أضيافه على نفسه ، كما يدفع عن جاره ، ويأبى إلا أن يكون عزيز الجانب ، قرير العين . والثأر في نظره واجب وهو حكم الحقيقة ولسان الحق :

إذا المرء لم يحتل وقد جدَّ جدُّه	أضاع وقاسى أمره وهو مُذِيرُ
ولكن أخوال الحزم الذي ليس نازلاً	به الخطبُ إلا وهو للقصد مبصرُ
فذاك قريبُ الدهر ما عاش حوّل	إذا سدَّ منه منخر جاش منخرُ
أقول للخيان وقد صغرت لهم	وطابى ويومى ضيقُ الجحرِ معورُ
هما خطتا إما إसारُ ومنَّةُ	ولما دمَّ والقَتْلُ بالحرِّ أجدرُ

وَأُخْرَى أُصَادِي النَّفْسَ عَنْهَا وَإِنَّهَا
فَرَشْتُ لَهَا صَدْرِي فَزَلَّ عَنِ الصِّفَا
فَخَالَطَ سَهْلَ الْأَرْضِ لَمْ يَكْدَحِ الصِّفَا
وَقَابَتْ إِلَى فَهْمٍ وَمَا كِدْتَ آتِيًا
لَمَوْرِدٍ حَزَمَ إِنْ فَعَلْتُ وَمَصْدَرُ
بِهِ جُوجُو عَيْلٍ وَمَتْنٌ مُخَصَّرُ
بِهِ كَذْحَةُ وَالْمَوْتُ خَزِيَانُ يَنْظُرُ
وَكَمْ مِثْلُهَا فَارَقَتْهَا وَهِيَ تَصْفِرُ

وذلك هو العربي الجاهلي ، وتلك هي النفس العربية الأصيلة التي ما تعلمت بعد أن تموه الحقيقة بالصنعة والكذب ، فالحياة عنده هزة بالحياة ، وتعلق بها ، هي كرامة تحفظ ، ومال يبذل ، وحرية تقدر ، ويد تمتد ، وانطلاق من غير انكفاء في جو من الاطمئنان والحذر ، واللاوعي الحازم .

والشنفرى هو أيضاً ابن الصحراء وابن الطبيعة العربية الأصيلة ، وابن الفطرة الغنية بالاعتزاز والشرف والكرم وعلو النفس ، فجفاف الصحراء ، ومطاردة الشدائد كراً وفراً ، والتكرار المذلة ، وإيثار الوحوش على الأهل لأنها أحفظ للسر وأحرص على الجار وإن جار ، والاكتفاء بالقليل مادة وسكناً . والصبر على الجوع ، وإيثار التراب على طعام المتفضلين ، ومجاعة الأيام ، والقبول بالفقر والغنى ، والارتياح إلى القوس ... هذا هو الشنفرى ، وهذا موضوع فخره ، وتلك طريقته الاعترافية الحافلة بالعدوبة . وها هو ذا ، وقد دخل الغيظ نفسه ، فغادر الأهل والأصحاب ، وراح يضرب في الفيافي ولا أنيس له سوى السهام ووحوش الصحراء ، ثم نظم قصيدة كانت حكاية لحاله في عزلة نفسه وسخطها ووحشتها . نجتزئ منها بما يلي :

أَقِيمُوا بَنِي أُمِّي صَدُورَ مَطِيئِكُمْ
فَلَيْتَ إِلَى قَوْمٍ سِوَاكُمْ لِأَمِيلُ
فَقَدْ حُمَّتِ الْحَاجَاتُ وَاللَّيْلُ مُقْمِرُ
وَشُدَّتْ لِبَطِيَّاتِ مَطَايَا وَأَرْحُلُ
وَفِيهَا ، لِمَنْ خَافَ الْقَلِيلَ ، مُتَعَزِّلُ
وَفِي الْأَرْضِ مَنَآئِي لِلْكَرِيمِ عَنِ الْأَذَى

لَعَمْرُكَ مَا فِي الْأَرْضِ ضِيقٌ عَلَى امْرِئٍ
وَلِي دُونَكُمْ أَهْلُونَ سَيِّدٌ عَمَلَسَ
هُمْ الْأَهْلُ لَا مُسْتَوْدَعُ السَّرِّ ذَائِعُ
وَكُلُّ أَبِي بَاسِلٌ ، غَيْرَ أَنِّي ،
وَلِنْ مُدَّتْ الْأَيْدِي إِلَى الزَّادِ لَمْ أَكُنْ
وَمَا ذَاكَ إِلَّا بَسْطَةٌ عَنْ تَفْضِيلٍ
وَلِي كِفَافِي فَقَدْ مَنْ لَيْسَ جَازِيَةً
ثَلَاثَةُ أَصْحَابٍ : فُوَادٌ مُشْبِعٌ
هَتُوفٌ مِنَ الْمُنَسِّ الْمُتُونِ يَزِينُهَا
إِذَا زَلَّ عَنْهَا السَّهْمُ حَنَّتْ كَأَنَّهَا

سَرَى رَاغِباً أَوْ رَاهِباً وَهُوَ يَعْقِلُ
وَأَرْقَطُ . زُهْلُولٌ وَعَرْفَاءُ جَيَّالٌ
لَدَيْهِمْ ، وَلَا الْجَانِي بِمَا جَرَّ يُخَذَّلُ
إِذَا عُرِضَتْ أُولَى الطَّرَائِدِ أَبْسَلُ
بِأَعْجَلِهِمْ ، إِذَا أَجْشَعُ الْقَوْمِ أَعْجَلُ
عَلَيْهِمْ وَكَانَ الْأَفْضَلُ الْمُتَفَضَّلُ
بِحُسْنِي وَلَا فِي قُرْبِهِ مُعْلَلُ
وَأَبْيَضُ لِصَلْبِيَّتْ وَصَفْرَاءُ عَيْطَلُ
رِصَائِعُ قَدْ نَيْطَتْ لِيَهَا وَمَعْمَلُ
مُرَزَّاةٌ تُكَلِّي تَرْنُ وَتُعَوِّلُ

وعروة بن الورد هو رجل العطاء والجلود يفخر بهما في غير تبجح ، وهو
رجل الاشتراكية الساذجة المركزة على محبة الغير والحذب على ذوى البؤس ، ومن
أروع ما قال في هذا الصدد :

دَعِينِي أَطُوفُ فِي الْبِلَادِ لَعَلِّي
أَلَيْسَ عَظِيماً أَنْ تُلِيمَ مُذَمِّمَةً
فَإِنْ نَحْنُ لَمْ نَمْلِكْ دِفَاعاً بِحَادِثٍ
أَفِيدُ غِنًى فِيهِ لِذِي الْحَقِّ مَحْمِلُ
وَلَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْحَقُوقِ مُعَوِّلُ
تُلِيمُ بِهِ الْأَيَّامُ فَالْمَوْتُ أَجْمَلُ

ومن ثم ترى أن هذا الصعلوك من أشرف الصعاليك ، فهو يعيش لغيره أكثر
بما يعيش لنفسه ، ويبدل كل شيء في سبيل الغير . وفخره اعتراف بما يعمل
وبما يرى ، واندفاق طبيعى للنفس الجاهلية ، في أقرب حالاتها إلى الفطرة .

ب - فخر الشعراء الفرسان :

وهناك فئة أخرى من الشعراء هي فئة الشعراء الفرسان ، وأحسن شعرهم في الحماسة والفخر ، وخير ممثلين لهم : حاتم طي* وعنترة بن شداد .
 أما حاتم الطائي فهو سيد من سادات قبيلته ، وهو مضرب المثل في الجود وكرم الأخلاق والعاطفة الإنسانية التي تمتد إلى كل ضعيف وغريب ، ومعوز وأسير . قال ابن الأعرابي : « كان حاتم من شعراء العرب ، وكان جواداً يشبه شعره جوده ، ويصدق قوله فعله ، وكان حينما نزل عرف منزله ، وكان مظفراً ، إذا قاتل غلب ، وإذا غم أنهب ، وإذا سئل وهب ، وإذا ضرب بالقداح فاز ، وإذا سابق سبق ، وإذا أسر أطلق . وكان يقسم بالله ألا يقتل واحداً أمه . وكان إذا أهل الشهر الأصم ، الذي كانت مضر تعظمه في الجاهلية ، ينحر كل يوم عشرة من الإبل ، فأطعم الناس واجتمعوا عليه » .
 وهكذا كان حاتم مترفعاً عن الدنيا ، وهو يقول :

كَرِيمٌ لَا أَبَيْتُ اللَّيْلَ جَادُ	أَعَدُّ بِالْأَنَامِلِ مَا رُزِيتُ ^(١)
إِذَا مَا بَيْتٌ أَشْرَبُ فَوْقَ رِيٍّ	لَيْسُ كَرِيٍّ فِي الشَّرَابِ ، فَلَا رَوَيْتُ
إِذَا مَا بَيْتٌ أَخْتِلُ عِرْسَ جَارِي	لَيْخُفِيئِي الظَّلَامُ فَلَا خَفِيَتْ ^(٢)
أَفْضَحُ جَارَتِي وَأَخُونُ جَارِي ؟	مَعَاذَ اللَّهِ أَفْعَلُ مَا حَيَّيْتُ !

فهو عفيف وهو أبي النفس ، وهو لا يخون الجار مهما تقلبت الأحوال .
 وهو رائع في فخره هذا ، مرتق إلى درجات عالية من سمو الأخلاق .

(١) الجادى : السائل . رزيت أى رزئت : أصبت به .

(٢) اختل : أخادع . العرس : الزوجة .

وحاتم لا يعبد الدينار ، بل يرى أن الحياة بذل وسخاء ، وأن المال خلق للبدل في سبيل الثناء والذكر الحميد . فعلى الإنسان ألا يكسبه بالغدر ، وعليه ألا يتمسك به تمسكاً شديداً ، وهو يقول :

إِذَا كَانَ بَعْضُ الْمَالِ رَبًّا لِأَهْلِهِ فَإِنِّي بِحَمْدِ اللَّهِ ؛ مَا لِي مُعَبَّدُ
يُفَكُّ بِهِ الْعَانِي ، وَيُؤَكِّلُ طَيِّباً وَيُعْطَى ، إِذَا مَنَّ الْبَخِيلُ الْمَطْرَدُ

وللمال في مذهبه سبل ، وللبدل في نظره مبرر ، فالعيش قصير ، والحياة فانية ، وخير ما يترك الإنسان على الأرض ذكر طيب ، وثناء يردده القاصي والداني .

وحاتم يوقد النيران للضيغان ليلاً ، ويبذل في سبيلهم كل نفيس . وكان إذا جنّ الليل يوعز إلى غلامه أن يوقد النار في يفاع من الأرض لينظر إليها من أضله الطريق فيأوى إلى منزله ؛ وكانت كلابه لا تهر في وجه ضيوفه :

وإِنَّا نُهِنُ الْمَالَ فِي غَيْرِ ظَنَّةٍ وَمَا يَشْتَكِينَا فِي السُّنَنِ ضَرِيرُهَا (١)
إِذَا مَا بَخِيلُ النَّاسِ هَرَّتْ كَلَابُهُ وَشَقَّ عَلَى الضَّيْفِ الضَّعِيفِ عَقُورُهَا (٢)
فإِنِّي جَبَّانُ الْكَلْبِ بَيْتِي مُوطَأً أَجُودُ ، إِذَا مَا النَّفْسُ شَحَّ ضَمِيرُهَا
وإِنَّ كَلَابِي قَدْ أَهَرَّتْ وَعُودَتْ قَلِيلٌ ، عَلَى مَنْ يَعْتَرِينِي ، هَرِيرُهَا

وهكذا كان حاتم عبداً لضيفه ، وكان اشتراكي التزعة ، وهكذا كان فخره حكاية حال . وتصويراً للحقيقة والآمال ، وهكذا كان رجلاً فوق الرجال ، وعلماً من أعلام المروعة العربية الأخاذة .

وأما عنتر بن شداد العبسي ففيه « معنى الرجولة العربية الكاملة ، فهو رقيق

(١) السنون : أي سنر القحط .

(٢) العقور : الذي يعقر .

دون أن تنتهى به الرقة إلى الضعف ، وهو شديد دون أن تنتهى به الشدة إلى العنف ، وهو صاحب شراب دون أن ينتهى به السكر إلى ما يفسد الخلق والمروءة ، وهو صاحب صمود دون أن ينتهى به الصحو إلى التقصير عما ينبغي للرجل الكريم من العطاء والندى ، وهو مقدم إذا كانت الحرب ، وهو عفيف إذا قسمت الغنائم وهو يحاول أن يصف من أخلاقه ما يشرف به العربي الكريم « فيقول :

أَتْنِي عَلَىٰ بِمَا عَلِمْتَ فَإِنِّي سَهْلٌ مُّخَالَفَتِي إِذَا لَمْ أَظْلَمْ (١)
وَلَقَدْ شَرِبْتُ مِنَ الْمُدَامَةِ بَعْدَ مَا رَكَدَ الْهَوَاجِرُ بِالْمَشُوفِ الْمُعْلَمِ (٢)
فَإِذَا شَرِبْتُ فَإِنِّي مُسْتَهْلِكٌ مَالِي ، وَعِرْضِي وَافِرٌ لَمْ يُكَلِّمْ
وَإِذَا صَحَوْتُ فَمَا أَقْصَرُ عَنْ نَدَى وَكَمَا عَلِمْتَ شِمَائِلِي وَتَكْرِي

وعنزة يغشى الوضى ويعف عن المغنم ، وهو رجل حياء وتكرم وعفة ؛ وفخره صورة صادقة لنفسه الشريفة التي تأتى القيود ، وتسمو إلى العلاء ، ولا تقبل الذل والصغار ، والتي تؤثر الجوع على المأكّل الخسيس ، ولا تخون الجار في ماله أو في عرضه .

٢ - فخر الأمراء وشعراء البلاط :

وقد تعالت نعمة الفخر في الجاهلية عند الأمراء أيضاً وشعراء البلاط ، إلا أن تلك النعمة لم تكن مجرد اعتراف وحكاية حال ، بل تضخمّت أوتارها بعض التضخم ، فتضخمّت من ثمّ المعاني والأخيلة ، ولكن من غير إحالة ولا غلو مكره . ومن هذه الفئة السموّل وطرفة بن العبد .

(١) مخالفتي ؛ معاشرتي .

(٢) المشوف : المجلو ، استمارها للدينار . المعلم : الذي يعمل كتابة .

أما السموءل فهو ابن غريص بن عادياى اليهودى صاحب الحصن المعروف بالأبلى بتياء ، وبه يضرب المثل فى الوفاء ، لأنه أسلم ابنه ولم يخن أمانته فى دروع أودعها عنده امرؤ القيس لما صار إلى القسطنطينية يطلب معونة القيصر . والسموئل على النفس عزيزها ، ينظر إلى كل شىء من عل ، لا عن كبرياء عمية ، ولا عن غرور صبيانى ، بل عن أنفة مكونة من عرض مصون ، وكرم أصل ، وتسام فى صفوف شبان قومه وكهولتهم ، وعزة جار ، ومنعة وشجاعة ، وسخاء يد ، وتاريخ مجد لا يعدله مجد . وشعر السموئل صورة لتلك النفس الرفيعة بما فيه من متانة فى الأسلوب والتركيب ، وما فيه من رصانة وجلال . قال مفتخرًا :

فكلُّ رداءٍ يَرْتَدِيهِ جَمِيلٌ	إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَدْنَسْ مِنَ اللُّؤْمِ عِرْضُهُ
فليس إلى حُسنِ الثَّنَاءِ سَبِيلٌ	وَلَا أَنْ هُوَ لَمْ يَحْمِلْ عَلَى النَّفْسِ ضَمِيمَهَا
فَقُلْتُ لَهَا إِنَّ الْكَرَامَ قَلِيلٌ	تُعِيرُنَا أَنَا قَلِيلٌ عَدِيدُنَا
شبابٌ تَسَامَى لِلدَّعَا وَكُهُولُ	وَمَا قَلَّ مَنْ كَانَتْ بَقَايَاهُ مِثْلَنَا
عَزِيزٌ وَجَارُ الْأَكْثَرِينَ ذَلِيلٌ	وَمَا ضَرَرْنَا أَنَا قَلِيلٌ وَجَارُنَا
مَنِيْعٌ يَرُدُّ الطَّرْفَ وَهُوَ كَلِيلٌ	لَنَا جَبَلٌ يَحْتَلُّهُ مَنْ نَجِيرُهُ
إلى النّجم فرجٌ لا يُنالُ طَوِيلٌ	رَسَا أَصْلُهُ تَحْتَ الثَّرَى وَسَمَا بِهِ
إِذَا مَا رَأَتْهُ عَامِرٌ وَسَلَوُ	وَلَنَا لِقَوْمٍ مَا نَرَى الْقَتْلَ سُبَّةً
وَتَكَرَّهَهُ أَجَالُهُمْ فَتَطُولُ	يَقْرُبُ حُبُّ الْمَوْتِ أَجَالَنَا لَنَا
وَلَا طُلَّ مِنَّا حَيْثُ كَانَ قَتِيلٌ	وَمَا مَاتَ مِنَّا سَيِّدٌ خَفَّ أَنْفِهِ
وَلَيْسَتْ عَلَى غَيْرِ الطُّبَاتِ تَسِيلُ	تَسِيلُ عَلَى حَدِّ الطُّبَاتِ نَفُوسُنَا
إِنَاثُ أَطَابَتْ حَمَلَنَا وَقُحُولُ	صَفُونَا فَلَمْ نَكْدُرْ وَأَخْلَصَ سِرُّنَا

عَلَوْنَا إِلَى خَيْرِ الظُّهُورِ وَحَطْنَا
فَنَحْنُ كَمَا الْمُنْ مَافِي نَصَابِنَا
وَنُكْرُ إِن شِئْنَا عَلَى النَّاسِ قَوْلَهُمْ
إِذَا سَيِّدٌ مِنَّا خَلَا قَامَ سَيِّدُ
وَمَا أُحْمِدَتْ نَارُ لَنَا دُونَ طَارِقِ
وَأَيَّامُنَا مَشْهُورَةٌ فِي عَدُونَا
وَأَسْيَافُنَا فِي كُلِّ غَرْبٍ وَمَشْرِقِ
مُعَوَّدَةٌ أَلَا تُسَلِّ نِصَالُهَا
سَلِي إِن جَهَلْتَ النَّاسَ عَنَّا وَعَنْهُمْ
فَإِنَّ بَنَى الدِّيَانِ قُطْبُ لِقَوْمِهِمْ
لِوَقْتٍ إِلَى خَيْرِ الْبُطُونِ نَزُولُ
كَهَامٌ وَلَا فِينَا يُعَدُّ بِخَيْلُ
وَلَا يُنْكِرُونَ الْقَوْلَ حِينَ نَقُولُ
قَوُولُ لِمَا قَالَ الْكِرَامُ فَعُولُ
وَلَا ذَمَّنَا فِي النَّازِلِينَ نَزِيلُ
لَهَا غُرُرٌ مَعْدُومَةٌ وَحُجُولُ
بِهَا مِنْ قِرَاعِ الدَّارِعِينَ فُلُولُ
فَتُغْمَدَ حَتَّى يُسْتَبَاحَ قَبِيلُ
فَلَيْسَ سِوَاءِ عَالِمٍ وَجَهْلُولُ
تَدُورُ رَحَاهُمْ حَوْلَهُمْ وَتَجُولُ

هذه القصيدة خلاصة الخلق العربي النبيل ، وخلاصة المروءة وعزة النفس ،
وهي تنقل القارئ إلى جو واسع من الرفعة ، وهي تنبض بالحياة وتمثل روح
صاحبها أقوى تمثيل ، وكأنني به شاخصاً في كل لفظة وكل نبرة وكل بيت ،
وكانني به في ذروة المجد العربي يردد القول :

تُعِيرُنَا أَنَا قَلِيلٌ عَدِيدُنَا فَقُلْتُ لَهَا إِنَّ الْكِرَامَ قَلِيلُ

وأما طريقة بن العبد فليس من شعراء الفخر الدين أكثروا من القول فيه ،
ولكنه شاعر عاش في جومن التحرر الفكري والأخلاق ، فاصطدم بالواقع الأليم ،
وطرد من حيه فراح يضرب في البلاد إلى أن اتصل ببلاط الحيرة ، واصطدم هنالك
أيضاً بضعة الناس ولم يحسن المراوغة ، وقد كان للاصطدام في نفسه انفعالات

شديدة ، وهو الشديّة الشّجور ، والكثير الانكفاء على الذات وعلى أحداث الحياة يحللها ويحاول تفهم مصايرها ومصادرها ، وقد كان لنفسه غضبات وانتفاضات ضميمها من أقوال الفخر ما يصيدني لحالاته النفسية أصدق إصداء . وهو في فخره رجل عنفوان يقبله على الواقع انطلاقات خياله ، وهو رجل صراحة وجراءة ، يصف لنا حاله في غير التواء ، وإذا هو قوى على حوادث الدهر ، صبور في الملمات ، وإذا هو من قوم مجدهم في اتزانهم ، ورفعهم في انتفاضهم وبسطة أكفهم . لا تبدلهم الأحداث ، ولا تغيرهم الأحزان والمسرّات ، يُعطون في غير حساب ، ويقرون الضيفان في غير اقتصاد ، لهم في نحور الأشرار طعنات وطعنات ، ولهم في نحور الأخيار قلائد وقلائد ، لا تعز الحمرّة في جنباتهم ، ولكن لهم مع الحمرّة عقولاً راجحة ، وفضائل غراء :

وَتَشَكَّى النَّفْسُ مَا صَابَ بِهَا	فَأَصْبِرْ لِمَنْكَ مِنْ قَوْمٍ صَبِرَ ^(١)
إِنْ يُصَادِفُ مُنْفِسًا لَا تُلْفِنَا	قُرْحَ الْخَيْرِ ، وَلَا نَكْبُو لِضُرِّ ^(٢)
أَمْسُدْ غَابٍ ، فَلَمَّا مَا فَرَعُوا	غَيْرُ أَنْكَاسٍ وَلَا هُوجٍ ، هُذِرُ ^(٣)
وَلِيَ الْأَصْلُ الَّذِي فِي مِثْلِهِ	يُضْلِحُ الْإِبْرُ زَرْعَ الْمُؤْتَبِرِ ^(٤)
طَيِّبُوا الْبَاءَةَ ، سَهْلٌ ، وَلَهُمْ	مُسْبَلٌ إِنْ شِدَّتْ فِي وَخْشٍ وَعِزُّ ^(٥)
وَهُمْ ، مَا يَهُمُّ ، إِذَا مَا لَبِسُوا	نَسِجَ دَاوُدَ لِبَاسٍ مُحْتَضِرِ ^(٦)

(١) صاب بها : الباء زائدة ، أى أصابها .

(٢) المنفس : النفس . نكبو : نكبو . ونعزن .

(٣) الأنكاس : سعة البلية .

(٤) الإبر : المصلح . المؤتبر : طالب الإصلاح .

(٥) الباءة : المساحة . يقول : إن ساحتهم سهلة لطالبي معروفهم ، وهى وعرة لطالبي ضرهم .

(٦) نسج داود : أى الدروع . المحتضر : الحاضر .

وَتَسَاقَى الْقَوْمُ كَأْساً مُرَّةً
ثُمَّ زَادُوا أَنَّهُمْ فِي قَوْمِهِمْ
لَا تَعِزُّ الْجُمُزُ ، إِنْ طَافُوا بِهَا
وَرَثُوا السُّودُّدَ عَنْ آبَائِهِمْ
نَحْنُ فِي الْمَشْتَاةِ نَدْعُو الْجَفَلَى
حِينَ قَالَ النَّاسُ فِي مَجْلِسِهِمْ
وَلَقَدْ تَعَلَّمُ بَكْرٌ أَنَّنَا
وَلَقَدْ تَعَلَّمُ بَكْرٌ أَنَّنَا
وَلَقَدْ تَعَلَّمُ بَكْرٌ أَنَّنَا
وَلَقَدْ تَعَلَّمُ بَكْرٌ أَنَّنَا

وَعَلَّا الْخَيْلَ دِمَاءً كَالشَّقِيرِ (١)
غَفَّرَ ذُنُوبَهُمْ ، غَيْرُ فُخْرٍ
بِسِمَاءِ الشُّوْلِ ، وَالْكُومِ الْبَكْرِ (٢)
ثُمَّ سَادُوا سُودُّدًا غَيْرَ زَمْرٍ (٣)
لَا تَرَى الْآدِبَ فِينَا يَنْتَقِرُ (٤)
أَقْتَارَ ذَاكَ أَمْ رِيحُ قَطْرٍ ؟ (٥)
آفَةُ الْجُزْرِ مَسَامِيحُ يُسْرُ
وَاضْحُو الْأَوْجُهَ ، فِي الْأَزْمَةِ ، غُرُ
فَاضِلُو الرِّأْيِ فِي الرُّوْعِ وَقُرُ
صَادِقُو الْبِئْسَاسِ ، فِي الْمَحْفَلِ غُرُ

وبعضى الشاعر الشاب فى تعداد المفاخر مثلاً ، هادئ السرب ، واثقاً أن ما يقوله هو الحق ؛ لا يبغي التهويل ولا يتطلب التمجيد ؛ هو رجل عقيدة خاصة ، وهو رجل مروعة ، وهو رجل حزم وصرامة ؛ وهو فى كلامه الصارم يصوغ المعانى فى قالب من البداوة الأصيلة ، تلك البداوة الواعية التى ترى وتدرك وتقيس كل شئ بمقياس الأخلاق البدوية الرفيعة ، من غير ما إغراق فى الغلو المبتذل .

-
- (١) الكأس المرة : الحديث فى الحرب . الشقر : شقائق النعمان .
(٢) طافوا بها : ساروا بها . سباه : شواه . الشول : النوق التى مر عليها من حملها أو وضعها سبعة أشهر . الكوم : النوق العظيمة السنام . البكر : الحديثات السن .
(٣) الزير : القليل .
(٤) المشتاة : الشتاء . ندعو الجفلى : أى نعم بدعوتنا إلى الطعام ولا نخص أحداً .
(٥) القتار : رائحة اللحم المشوى . القطر : العود الذى يتبخر به .

تلك نماذج من الفخر الذاتي في الجاهلية ، يتضح لنا من خلالها أن موضوعها الأخلاق العربية التي كان العربي يعتز بها ، وهي مستوحاة من حياة الفطرة وحياة البادية . ويتضح لنا أنها تنبت على لسان الشاعر الجاهلي نبثاً تلقائياً في سداجة عذبة ، وفي إيمان ثابت بالكرامة العربية ، والعزة البدوية .

الفخر الذاتي في العهد العباسي

لم يقتصر الفخر الذاتي على الجاهلية وإنما تعداها إلى سائر عصور الأدب ، ورافق الشعر في جميع تطوراتهِ ، وقد انتشر في العهد الإسلامي والأموي ولكنه امتزج بفكرة الفتوح ، وبالحماسة الهجائية والحربية ؛ ولهذا أثرنا أن نجعله في باب خاص ؛ ثم كان العهد العباسي ، وكان الانقلاب العظيم في السياسة والاجتماع والثقافة ، وجرى التمازج الضخم بين العرب والشعوب الأعجمية . وبين العقل العربي والعقل اليوناني والفارسي والهندي ، وبين الحضارة العربية وحضارة الشرق القديم ؛ ونشأت النزعة العنصرية في صفوف الشعوبية ، وكان للفخر على كل حال أبواب وأبواب . أما موضوعات الفخر الذاتي في العهد العباسي فهي مما يماشي حاجات أبناء ذلك العهد وصور معيشتهم . وقد كانوا في بدء الأمر في طور انتقال من حال إلى حال ، من عروبة أصيلة إلى عروبة ممتزجة ، من تشديد إلى تحرر ، من ثقافة وحضارة عربيين إلى ثقافة وحضارة هما مجموعة ثقافات وحضارات . من عادات وتقاليد عربية في الأخلاق والدين والأدب ، إلى عادات وتقاليد هي عصارة عادات وتقاليد ومجموعة نزعات تصطبغ كلها بصبغة الانقلابات من القيود ، والتفلسف والجدل ، والاعتماد على العقل الذي فاجأته الفلسفات فحار بينها وحاول أن يهدم ويبني في غير تثبت عميق أحياناً كثيرة . ثم راح أبناء ذلك العهد يهضمون الفلسفة والعلوم ، وراحوا يبحثون وينظرون ، وراحوا يكتبون في ما يبحثون ، وإذا الجوجو علمي ثقافي تجديدي ، وإذا هنالك صراع بين القديم والحديث ، وبين التقاليد والتقاليد ، وإذا هنالك تفاخر على غير خطة الجاهلية والعهد الأموي ، وإذا الفخر يدور حول العقل والرأى والحكمة ، وحول الانقلابات والتحرر ، والشجاعة الحكيمة ، والحزم في

الأمر ، والأصل العريق في الحضارة والرقى . والشاعرية الخلاقة والزخرفة الحافلة بالفن ، والأصباغ المتماوجة في أجواء الجمال ، وحول الوقار والتعالى في سلم المجد المعنوى ، وما إلى ذلك مما نلمسه بقوة في الأدب العباسى . ولئن عثرنا بعض الأحيان على فخر بدوى يشبه الفخر القديم ، فما ذلك إلا نفحات صحراوية في بلاد التين والرخاء . وما ذلك إلا أصوات ناشزة في عالم من الأنغام المتناسقة .

ولئننا سنعرض لبعض شعراء الفخر في هذا العهد مبينين ما لهم من صفات وميزات ، موضحين آراءهم وأساليبهم ، وإن في شعرهم الدلالة الثابتة على ما في شعر غيرهم من ميزات وآراء وأساليب .

١ - فخر المجددين :

حياة جديدة واسعة الآفاق ، وعناصر أجنبية تضمحلل للغرب شراً ، وشعوبية غاضبة على السلطان القائم ، وتدخل الفرس في صلب الدولة ، كل ذلك دعا إلى التجديد في مطلع العهد العباسى . بل دعا إلى صراع بين أرباب القديم وأرباب الجديد . وخير ممثل لهذه النزعة التجديدية في الفخر بشار بن برد .

كان بشار من أصل غير عربى ، وكان فياض القريحة الشعرية ، ففخر على عادة الشعراء ، وكان الميدان أمامه واسعاً ، وإذا به يصف نفسه بكل الصفات المحببة إلى ابن العهد العباسى ، في كلام متين ، وتدفق عجيب ، وسلاسة ما بعدها سلاسة ، وموسيقى شعرية أخاذة ؛ وإذا به رجل الشهرة الواسعة التى لا تضاهيها شهرة :

أَنَا الْمَرَعْتُ لَا أَخْفَى عَلَى أَحَدٍ ذَرْتُ بِي الشَّمْسُ لِلدَّافِى وَلِلنَّائِمِ

وإذا به نموذج ومثال أعلى يشبه به الخليفة نفسه :

يغدو الخليفةُ مثلي في محاسنه ولست مثلي فَنَمَّ ياماضِغُ الماءِ^(١)

فهو أخو المحاسن ، وهو الرجل العالى فى مراتب الاجتماع ، وهو رجل الخطه العظيمة ، الذى ينهض بكل أمر ذى شأن .

وهو رجل المضاء والبيان :

قَطَعْتُ مِرَاءَ القومِ يَوْمَ مَهَابِلِ بِقَوْلِي وما بَعْدَ البَيَانِ مِرَاءُ
وقد علمتُ عليسا ربيعةً أَنَّنِي إِذَا السَّيْفُ أَكْثَدَى كَانَ فِي مَضَاءِ

وهو القلب النير والمقول الذرب :

قَدْ أَذْعَرُ الجِنَّ فِي مَسَارِحِهَا قَلْبِي مُضِيٌّ وَمِقْوَلِي ذَرْبٌ

هو رجل العقل والحصافة ، هو رجل الثقافة الواسعة فى عالم الثقافة والعلم ، وهو رجل القرىحه الفياضة فى عصر الإنتاج والنقل والترجمة ، وهو إلى ذلك رجل الوقار القائم على العقل المفكر :

يا مَلَمَ إِنَّنِي امرؤُ يوقِّرُنِي حِلْمِي إِذَا القَوْمُ فِي الخُنا وَتَبُّوا

أما قومه فخير القوم ، فى شجاعتهم ، وعزهم وشرفهم ، ورجاحة عقلهم :

أَصُونُ عن اللُّثَامِ لُبَابَ ودِّي وَأَخْتَصُّ الأَكَارِمَ باللبابِ
وَأَيُّ فَتَى من البَوَغَاءِ يُغْنِي مُقَامِي فى المَخَاطِبِ والخِطَابِ^(٢)

(١) يخاطب يحيى بن صالح بن على بن عبد الله بن عباس ويهجو ويذمته بالحق وسوء وضع الأشياء موضعها .

(٢) البوغاء : الحق .

وَتَجْمَعُ دَعْوَتِي آثَارَ قَوْمِي هُمُ الْأَسَدُ الْخَوَادِرُ تَحْتُ غَابِ
وَلَاةُ الْعِزِّ وَالشَّرَفِ الْمَعْلَى يَرْدُونُ الْفُضُولَ عَلَى الْمُصَابِ

هؤلاء هم قومه ، وهذا هو في قومه ، وهذا هو العقل عنده وعند قومه ،
وهذه هي النزعة الإنسانية التي تحنو على الوجود ، وتقابل النكران بالحدود ،
وتنبت من الشرخيراً ، ومن الغضب برأ ، وتسرع إلى الرحمة من غير ما سرعة
إلى العتاب والعقاب ، وترد الضال عن غيه ، وتلم الشعث ، ولا تطلب من عمل
خير عمله إلا أن ينتفع الناس ويعرفوا الجميل ؛ وإذا دعت الحال إلى الحرب ،
كانت تلك النزعة صدوراً متأهبة للقتال في بأس شديد، وسخاء في التفاني عجيب.

مشهد جديد من مشاهد الفخر دعت إليه الحضارة الجديدة والمجتمع
الجديد ، وكف في هذا الفخر من تعقل ورصانة وجودة تفكير !
وأما أصل بشار فهو بعيد عن كل أصل عربي ، وهو بعيد عن عادات
العرب . وهنا تظهر النزعة الشعوبية عند بشار بأجلى مظاهرها . فاسمعه يقول .

هَلْ مِنْ رَسُولٍ مُخْبِرٍ عَنِّي جَمِيعَ الْعَرَبِ
بِأَنِّي ذُو حَسَبٍ عَالٍ عَلَى ذِي الْحَسَبِ
جَدِّي الَّذِي أَسْمُو بِهِ كَسْرَى وَسَاسَانِ أَبِي

إن في هذه القصيدة استعلاء شديداً على العرب ومفاخرة بالفرس والروم .
وهذا شيء جديد في تاريخ الفخر العربي . وإنما إذا أنعمنا النظر في القصيدة
تجلت لنا الحضارة الفارسية في أبهى وروئقها ، وذكرنا الحروب الفارسية
وانتصارات الأكاسرة ، وقفنا أمام الشاعر متتبعين لأحداث التاريخ ، ذاكرين
أثر الفرس في الانقلاب العباسي ، وكيف كان ذلك شرارة ألهمت النار الشعوبية

فى طول البلاد وعرضها ، مما شجع الألسنة على تنقص العرب والخط من شأنهم والتطاول على كرامتهم .

وبشار رجل طوّحت به الأقدار وزجته فى ظلمة كالحة ، لا يجد معها سلاحاً يقاوم به الحدّثان إلا لساناً محدداً ، وشاعرية فياضة تلبى حين الطلب . وهو رجل عنفوان وطموح ، تحمله طبيعته على التسامى وعلى سد نقص الطبيعة بذلك التسامى نفسه ، وهو من ثمّ ميال إلى المفاخرة ، حاقداً على الحظ ، كاره للناس ولا سيما العرب منهم ، الذين يجد من بعضهم استصغاراً لشأنه . وهذا الشعور بالنقص عند بشار ، وهذا الحقد ، وهذا التسامى ، كل ذلك يدفعه إلى السخرية الصفراء ، إلى الاستهزاء الناقم . ولهذا حفل فخره بالاستهزاء اللاذع والسخرية القتالة .

وبشار إلى ذلك رجل حماسة فياضة ، ينتفض شعره بعاطفته انتفاضاً ، وتحمل ألفاظه أصداء عميقة لتلك العاطفة المنتفضة ، وهو القائل :

إِذَا الْمَلِكُ الْعَجْبَارُ صَعَرَ خَدَّهُ مَشِينًا إِلَيْهِ بِالسَّيْفِ نَعَاتِيَّةُ

وهكذا كان بشار نفير العهد الحديد ، وهكذا كان فخره جديداً بمعناه وأسلوبه وشعوبيته ، وإن لم يخل من بعض النفحات القديمة التى انتقلت إليه عن طريق التقليد .

ب - فخر العودة إلى القديم :

بعد هذه الثورة التجديدية التى حاول أن يبعثها المجددون ، نشأ تيار معاكس يعمل على العودة إلى القديم وتقليد الأقدمين ، ويرد الشعر إلى أبواب البلاطات ، وإلى أرسقراطية القديم وصلابته ، من غير ما تغاض عن حضارة العصر الحديد ، ومن غير إهمال لما تقدمه الثقافة الجديدة من عمق تفكير ، وتعميق وتحبير ، ومن تفخيم وتطلب للصنعة البديعية . وقد اشتهر فى هذه المرحلة أبو تمام والبحترى وابن الرومى .

أما أبو تمام فهو صاحب قصائد قليلة في الفخر ، يبدى فيها إعجابه بعقله الباكر الفذ ، وعبقريته الشعرية ، وبصبره ومضائه في اقتحام الصعاب ، وسعيه وأسفاره ، كما يعرب فيها عن إعجابه بقبيلته طيئ ، وما تمتاز به دون سواها من حجى وحلم وشجاعة ، ومن مجد أثيل ، وندى فياض .

وأما البحتري فقد أودع فخره إعجابه بقومه ، مباهاياً بمكارمهم ، معدداً مناقبهم ، مقابلاً شرف الين وعزها بمخشونة عرب الشمال وسوء حالهم ، كما أودعه إعجابه بنفسه ، وكبره المقرط ، ذلك الكبر الذى طالما حال التكسب دونه في حياة الشاعر ، فاضطره إلى كسر عنفوانه وعناده ، وهضم الإهانة في حذر ، نخشية صدى العطاء .

وأما ابن الرومي فكان الفخر عنده وسيلة يحارب بها سوء نظر الناس إليه ، وكان انتفاضة عصبية في وجه الظلم ولؤم الناس . فهو يقريع الممدوحين على الانتفات إلى سائر الشعراء دونه ، وهو وحده في نظره الجدير بالانتفات ، ويفخر وفخره أحياناً كثيرة بشعره وبلاغته . ومن قوله :

شِعْرِي شِعْرٌ إِذَا تَأَمَّلَهُ الْإِنْسُ أَنْ ذُو الْعَقْلِ وَالْحَجَى عَبْدُهُ

ومن قوله أيضاً مخاطباً القاسم بن عبيد الله :

لَبُّ إِنْئَى لَمْ تُحَسِّنْ أَجْزَاءَ	إِنْ أَكُنْ غَيْرَ مُحْسِنٍ كُلِّ مَا تَطَّ
كُنْتُ مِمَّنْ يَشَارِكُ الْحُكَمَاءَ	فَمَتَى مَا أَرَدْتَ طَالِبَ فَخْصٍ
كُنْتُ مِمَّنْ يُسَاجِلُ الشُّعْرَاءَ	وَمَتَى مَا أَرَدْتَ قَارِضَ شِعْرِ
جَلَّ خَطْبِي فَفَاقَ بِي الْخُطَبَاءَ	وَمَتَى مَا خَطَبْتَ مِنِّي خُطْبِيَّ
بَلَّغْنِي بِلَاغَتِي الْبُلْغَاءَ	وَمَتَى حَاوَلَ الرِّسَائِلَ رَسَلِي

٢ - فخر شعراء الإمارات :

ازدهرت الإمبراطورية العباسية ازدهاراً شديداً في امتداد أطرافها وسعة رقعتها وخصب أرضها وسمائها وعظمة سلطاتها ، وقد بلغت أوجها في عهد المأمون . وما إن دارت الأيام دورتها حتى تمزق هيكل تلك الإمبراطورية الضخمة لأسباب اجتماعية وسياسية ، وحتى أصبحت نهياً لكل ذى طموح وطمع ، وإذا الدولة تصبح دويلات ، أشهرها دولة بني العباس في بغداد ، ودولة البويهيين في فارس ، ودولة الحمدانيين في الشام ، ودولة الفاطميين في مصر والمغرب . وقد تنافست تلك الدويلات في تشجيع العلم والأدب ، وأصبحت البلاطات المختلفة مباءة الشعراء والكتاب . وقد اشتهر من الشعراء في هذه الحقبة أبو الطيب المتنبي ، وأبو فراس الحمداني ، والشريف الرضي ، وأبو العلاء المعري ، والطغراني .

أبو الطيب المتنبي :

ولد بالكوفة وفخره كثير في ديوانه . وهو مبثوث في جميع قصائده تقريباً ، وإن لم يستقل بوحدة منها . فأبو الطيب يفخر في جميع أحواله ، سواء رثى أم مدح أم هجا أم تغزل أم شكا . ولا عجب ، فهو لا يرى له مثيلاً في الوجود ، يعبد نفسه ويكاد لا يعرف في الأرض سواها . أحس بعظمة شخصيته ، وقدر صفاته ، من أنفة وعزة وبسالة وشاعرية . حق قدرها بل فوق قدرها ، فامتلاً صدره وفاض حسداً وكرهاً . زد على ذلك اشتهار أصله العربي بالفصاحة والبيان ، وقبيلته النينية بالفروسية والشجاعة . وكان له أيضاً من نشأته البدوية ما مكن فيه التزعة المفاخرة . حتى أصبحت فيه طبعاً ، ومن معاكسات الزمان ، ومناهضة الحساد ، ما جعله يعمد إلى الفخر ، تفريحا وتعزية للنفس .

قلّ فخر المتنبي بقومه ، وإذا فخر بهم أوجز وأجمل ، لقلّة ما عرف عن آبائه الأقربين من المآثر والمفاخر ، ولأنه كان يعد نفسه مفخرة قومه :

لَا بِقَوْمِي شَرُفْتُ ، بَلْ شَرُفُوا بِي وَبِنَفْسِي فَخَرْتُ ، لَا بِجُدُودِي !

ولذلك حصر فخره في نفسه ، مطرباً عزمه وصبره ، وتصلبه ، وخبرته :

كَأَنِّي دَحَوْتُ الْأَرْضَ مِنْ خَيْرَتِي بِهَا كَأَنِّي بَنَى الْإِسْكَانَ دُرُ السَّادِمِ مِنْ عَزِي

وهو يجب أن يتمثل بعثرة ، فيصف نفسه في الممعة ، يوقع بالعدو المذعور بالسيف والرمح . وكَم تسمعه يتغنى بشاعريته ، ذاكرةً مقدرة في الشعر وانقياد القوافي له :

أَنَامُ مِلءَ جَفْوَتِي عَنْ شَوَارِدِهَا وَيَسْهَرُ النَّاسُ جَرَّاهَا وَيَخْتَصِمُ

وسيرة شعره :

وَمَا الدَّهْرُ إِلَّا مِنْ رُؤَاةٍ قَصَائِدِي إِذَا قُلْتُ شِعْرًا أَصْبَحَ الدَّهْرُ مُنْشِدَا

وبهاء منظوماته وحسن سبكها :

وَمَا قُلْتُ مِنْ شِعْرٍ تَكَادُ بَيُوتُهُ إِذَا كُتِبَتْ ، يَبْيِضُ مِنْ نُورِهَا الْحَبِيرُ

والمتنبى يعد نفسه من مرتبة الأنبياء والملوك ، وكثيراً ما يجعل نفسه فوق

الجميع ، ويجمع فيها كل الصفات :

سَيَعْلَمُ الْجَمْعُ مِمَّنْ ضَمَّ مَجْلِسُنَا بِأَنِّي خَيْرُ مَنْ تَسْعَى بِهِ قَدَمُ
الْخَيْلُ وَاللَّيْلُ وَالْبَيْدَاءُ تَعْرِفُنِي وَالسَّيْفُ وَالرَّمْحُ وَالْقِرطَاسُ وَالْقَلَمُ

وفخر المتنبى صريح ، جرى في كبريائه الجموح ، بل مغال فيها إلى حد

مفرط ، وكثيراً ما يبطن كبريائه بازدياء شنيع يشمل الناس والكون جميعاً .

إلا أن فيه من الأنفة والترفع عن الدنيا ، وجمال الصفات الرجولية
واندفاع الروح الشعرية النابضة ، ما يغطي شيئاً من تلك المعاييب الضخمة ،
ومن أروع المواقف التي توضح لنا نفسية المتنبي في غيرها واعتدادها ذلك
الموقف الجبار الذي وقفه في حضرة سيف الدولة وحوله الشعراء والعلماء وقد آلموه ،
وقد أوغروا عليه صدر أمير حلب ، فقال قصيدة منها :

كم تطلبون لنا عيباً فيُعجزكم ويكره الله ما تأتون والكرم
ما أبعد العيب والنقصان عن شرفي أنا الثريا وذان الشيب والهزم

أبو فراس :

أما أبو فراس الحمداني فقد افتخر كل حياته ، حتى في أسره ، وأقيم
الآيات الفخرية في أغلب منظومه ، أيماً كان نوعه .
كان لأبي فراس من عز قبيلته تغلب ، ومكانة آبائه الذين اشتهروا بالشجاعة
والجلد وعلو الهمة ، داع يستفزه إلى الفخر ، ولا سيما أنه قد تفتحت عيناه للنور
في قصر تملؤه طائفة من حملة السيوف وأرباب الأدب .
ولما شب رأى في نفسه أنفة وفتوة ناضرة ، وشجاعة ترغب في قراع الأسنة
واقترحام المخاطر ، وشمال أثارت في نفسه الإعجاب . ولما خاض ميدان القتال ،
وأحرز من الانتصار على مناهضي ابن عمه سيف الدولة ما هز أعطافه طرباً ،
هب يترنم بوقائعه ، وترسه بالشدة والتصلب في مجابهة الأخطار .
ثم لم يلبث أن أسر ، فتبدلت حاله ، ولكنه أنى المذلة ، فشرع يتعزى
ويتنشط بذكر مآثره ونخصاله .

ولعل تيتمه في حداثة سنه ، الذي حرمه عطف والده وخفاوة المتزلفين ،
دعاه إلى الفخر ، استعاضة عن مديح الشعراء .
ولأبي فراس في قبيلته وذويه مفاخر كثيرة ، منها قصيدة طويلة مطلعها :

لعلَّ خيالَ العامريَّةِ زائرُ فيسعدَ مهجورُ ، ويسعدُ هاجر

وهو يرى في قبيلته الخير كله ، فإن ماضيها وما لها من الأيام الماثورة ، قبل الإسلام وبعده ، يشهدان بمفاخرها . وناهيك بآل حمدان دليلاً . هم أولو المناقب الرفيعة ، والمآثر الجليلة ، وهم أصحاب الكرم والمجد والشجاعة :

لَشِنْ خُلِقَ الْأَنَامُ لَحَسَوِ كَأْسٍ وَمِزْمَارٍ وَطَنْبُورٍ وَعُودٍ
فَلَمْ يُخْلَقْ بَنُو حَمْدَانَ إِلَّا لَمَجْدٍ أَوْ لِبَاسٍ أَوْ لِحُجُودٍ

وفي آل حمدان السياسة المحنكة . وقد بذلوا في سبيل الخلافة فأقدموا على الحرب ردعاً للخوارج ، وتديلاً للثائرين ، وقهرأ للروم ، وإخضاعاً للقبائل المتشعبة . قال في قصيدة يفخر بها على نزار :

تُفَضِّلُنَا الْأَنَامُ وَلَا تُحَاشِي وَنُوصَفُ بِالْجَمِيلِ وَلَا نَحَابِي
وَقَدْ عَلِمْتَ رِبِيعَةُ بَلَّ نِزَارُ بَأْنَا الرَّأْسُ وَالنَّاسُ الذَّنَابِي

ولا يقف أبو فراس عند ذكر أسلافه الأبعدين . بل ينتقل إلى تعداد مناقب جدّه . ووالده ، وابن عمه سيف الدولة ، فتبدو له مفعرة باقية أبداً الدهر ، يصونها الأحفاد بعد الأجداد ، ويكملون تشييد ما بنى قبلهم من صروح العز الرفيعة :

نَشِيدُ كَمَا شَادُوا ، وَذَبْنِي كَمَا بَنَوْا لَنَا شَرَفٌ مَاضٍ وَآخِرٌ غَابِرُ

وهكذا يصل الشاعر إلى نفسه . فيفتخر باشتداد عزيمته ، وإقدامه ، وتصلب قوته في وقائع الحروب ، وأنفته ، وانبساط كفه ، وترفعه عن الدنية .

ومهما يكن من اشتداد التواثب وإيقاعها به ، فلا تزال نفسه تأني مواطن
الذل وتحمل الإهانة وهبوط العزيمة ، ولكنها لا ترى ضيراً في التشكي والعتاب ،
وتذكير الواجب ، وما سوى ذلك مما وسعته الروميات . ذلك لأنه ظل في حياته
شرفاً عزيزاً :

وكيفَ يَنْتَصِفُ الأَعْدَاءُ مِنْ رَجُلٍ الْعِزُّ أَوَّلُهُ وَالْمَجْدُ آخِرُهُ

يتوكأ أبو فراس في فخره على مفاخر قدامى العرب من مثل عمرو بن كلثوم
والمهلهل ، فيكثر من ذكر أسماء الرجال وموقع القتال ، ويجعل فخره قومياً أكثر
منه ذاتياً . إلا أنه لا يجيد وصف القتال ، ولا يطيل فيه كما كان يفعل المتنبي .
فكانت قصائده في هذا الباب تعداد مفاخر تزخر بعواطف الزهو والمجد ، وينفخ
فيها نفس عال فيه من الكبرياء والعزة القومية الشيء الكثير . ولا يخلو فخر
أبي فراس من الغلو ولكنه غير مفرط ، ولا يخلو من اللطف الذي يسمو به عن
الفخر الصبباني . وأبو فراس صادق العاطفة ، مندفع الحماسة وإن كان
ضعيف الوصف ، غير دقيق التصوير .

زد على ذلك أن لفخر أبي فراس قيمة تاريخية كبيرة لأنه سجل لأعمال
الرجل ومآثر قومه وأجداده .

الشريف الرضي :

أما الشريف الرضي فهو من أشهر شعراء الفخر عند العرب ومن شعره في
الفخر قوله :

لِغَيْرِ أَعْلَى مِنِّي الْقَبْلِ وَالْتَجَنَّبُ
لِذَا اللَّهُ لَمْ يَعْلُزْكَ فِيمَا تَرَوُهُ
مَلَكَتْ بِحِلْمِي فُرْصَةً مَا اسْتَرْقَهَا
وَلَوْ لَا أَعْلَى مَا كُنْتُ فِي الْحُبِّ أَرْعَبُ
فَمَا النَّاسُ إِلَّا عَاذِلٌ وَمُوْنِبُ
مِنَ الدَّهْرِ مَفْتُولُ الدَّرَاعَيْنِ أَغْلَبُ

فَإِنْ تَكُ سِنَى مَا تَطَاوَلَ بَاعُهَا
فَحَسْبِي أَنْسَى فِي الْأَعَادَى مُبْغَضُ
وَلِلْجَلَمِ أَوْقَاتٌ ، وَلِلْجَهْلِ مِثْلُهَا
يَصُولُ عَلَى الْجَاهِلُونَ ، وَأَعْتَلَى
يَرُونَ أَحْتِمَالِي غُصَّةً وَيَزِيدُهُمْ
وَأَعْرِضُ عَنْ كِبَاسِ النَّدِيمِ كَأَنَّهَا
وَقُورٌ فَلَا أَلْحَانُ تَأْسِرُ عَزَمَتِي
وَلَا أَعْرِفُ الْفَحْشَاءَ إِلَّا بِوَضْعِهَا
تَحَلَّمُ عَنْ كَرِّ الْقَوَارِصِ شَيْمَتِي
لِسَانِي حَصَاةٌ يُفَرِّغُ الْجَهْلُ بِالْحِجَى
وَلَسْتُ بِرَاضٍ أَنْ تَمَسَّ عَزَائِمِي
غَرَائِبُ آدَابِ حَبَائِي بِحِفْظِهَا

فَلِي مِنْ وَرَاءِ الْمَجْدِ قَلْبٌ مُذْرَبُ
وَأُنَى إِلَى غُرِّ أَلْمَعَالِي مُحَبَّبُ
وَلَكِنْ أَيَّامِي إِلَى الْجَلَمِ أَقْرَبُ
وَيُعْجِمُ فِي الْقَائِلُونَ ، وَأَعْرِبُ
لَوَاعِجِ ضِغْنٍ أَنْزَى لَسْتُ أَغْضَبُ
وَمِيضُ عَمَامٍ غَائِرِ الْمُزْنِ خُلْبُ
وَلَا تَمَكُّرُ الصَّهْبَاءِ فِي حِينِ أَشْرَبُ
وَلَا أَنْطِقُ الْعُورَاءِ وَالْقَلْبُ مُغْضَبُ
كَأَنَّ مُعِيدَ الدَّمِّ بِالْمَدْحِ مُطِيبُ
إِذَا نَالَ مِنْنِي الْعَاظِيَةُ الْمُتَوَكِّبُ
فُضَالَاتٌ مَا يُعْطَى الزَّمَانُ وَيَسْلُبُ
زَمَانِي وَصَرَفَ الدَّهْرُ نَعْمَ الْمُؤَدَّبُ

ويتجلى لنا الشريف الرضى رجل عزة وإباء وعزم ، ينظر إلى أصله وإذا
هو في دوحة العلياء من أكرم فرع ، وإذا هو مدعو إلى كل كبير عظيم ،
وإذا نفسه أهل لذلك العظيم ؛ وينظر إلى حاله وإذا هو غير ما دعى إليه وخلق
لأجله ، وإذا في نفسه حرب جبارة ، وثورة سخط ضخمة في وجه الزمان الذى
يعادى الأحرار ، وفي وجه الناس الذين يقومون في وجه كل عزيز طموح .
ويتجلى لنا الشريف حزيناً في قرارة نفسه ، متألماً في أعماق قلبه ، وذلك أنه
لا يستطيع القبول بالظلم ، والاستكانة للذل ، فهو ينتفض انتفاضة النسر الجريح ،
وينظر إلى خصومه بعين حادة يلتمع فيها الشرر ، وبقلب جرىء لا يخاف سيلاً

ولا مسوداً ؛ هكذا يتجلى لنا الشريف من خلال شعره ، فهو نفس كبيرة أبية ، وقلب رقيق شديد الانفعال ، وثاب إلى المعالي ، نباض في وجه الظلم ، جرى على رفته ، بطاش على شدة انفعاله ، لا يخلو من زهو وكبرياء ، ولكن تلك الكبرياء هي أقرب إلى الأنفة منها إلى الكبرياء .

وقد أراد الشريف أن يقلد المتنبي في فخره ، فجاراه في نفخته الملحمية ، ونبضاته التوثيبية ، وترفعه عن كل حقير دنى ، وإنه وإن لم يبلغه في قوة انطلاق شعره ، وفي سكه للآيات سكاً شديد الوقع ، فقد وجد من شرف أصله ، وسمو نفسه ، ومواهبه العالية ، وسجاياه النادرة ، ومقامه الاجتماعي ، ما لم يتوفر لأبي الطيب ، ولهذا فقد اتسع نطاق فخره ، وازدحمت معانيه ، وتنوعت أفكاره ، ولم يلجأ إلى الإحالة ليخفي ضعفاً أو أصلاً حقيراً أو مقاماً اجتماعياً غير لائق به . ومن ثم فقد كان فخر الشريف أقرب إلى النفس ، وأدخل في العقل ، وآنس للأذن .

وقد فخر الشريف بقومه وفخر بنفسه ، أما فخره بقومه فهو فخر العزة والإعجاب واللوعة ، فخر من ينظر إلى الدوحة الكريمة فيتعالي في سماها ، ويعرق بين أوراقها في عشق ووله ، ثم ينظر إلى ما قطع من أغصانها ومن قتل من آل البيت فتدوب نفسه أسى وينطلق لسانه شاكياً ، مهدداً ، وإذا شعره شدة ولين ، ومزيج من قسوة ورقة . وأما فخره بنفسه فهو تطلع إلى العلياء ، وتحديق بالجد والإباء ، وإعجاب بشجاعة القلب ، وفيض الشاعرية ، وانطلاق الآمال .

وإنك لتشعر ، في كلام الشاعر ، برفعة ترفعك إلى أجوائها ، وبجو ملحمي يحاول الشاعر أن يضخم عناصر القوة فيه بالتشخيص والتثيل وتشديد اللفظ والقافية ؛ وإنك لتشعر أيضاً أن في نفس الرجل انصهاراً مؤثلاً يرسل بين سطور الفخر آهات الشكوى والعتاب ، كما يرسل زجرات السخط والتهديد ، وإنك تشع على كل حال بانسجام رائع ، وعدوبة أخاذة ، وعمق في التفكير ، وبعد في اللحم . وتعجبك من الشريف صراحته وجراته ، كما يعجبك إيجازه وابتعاده

عن التفصيل والإسهاب . ويرورك اختيار الشريف لألفاظه ، وحسن تركيبه لأبياته ، فهي بنوية خضرية ، مركبة تركيباً حسن الوقع ، رائع الإيقاع .

المعري :

وأبو العلاء المعري هو فيلسوف الشعراء . له عدة قصائد في الفخر أشهرها قصيدتان : الأولى همزية ومطلعها :

ورائي أماماً والأمام وراء إذا أنا لم تكبرني الكبراء
والثانية لامية ومطلعها :

ألا في سبيل المجد ما أنا فاعل عفاف وإقدام وحزم ونائل
والشاعر يفخر بنفسه وبقومه . أما نفسه فيفخر بصفاتها الأدبية من شجاعة وكرم وذكاء . وأما قومه فيفخر بسلطانهم على الشعر ، واستيلائهم على الأرض ، وغناهم عن الناس ، واقتدار الناس إلى معرفتهم .

وأبو العلاء يكد ويجهد في البرهان عن مفاخره ، وكأنه يخشى من علته وقبح مظهره أن يحولا دون تقدير الناس له ، فينظم الشعر النابض بترعات شخصيته القوية ولا يتخرج من المبالغة في المدح . ويتأني له في موقفه هذا أبيات حكمية يتجلى فيها فضل الروح على المادة ، وفضل الغنى الداخلي على الثروة المادية ، فيقول مثلاً :

وإن كان في لبس الفتى شرف له فما السيف إلا غمده والحمائل

الطغرائي :

أما الطغرائي فله في الفخر قصيدة شهيرة عرفت بلامية العجم ومطلعها :

أصالة الرأي صانتني عن الخطل وحليّة الفضل زانتني لدى العطل
مجددي أخيراً ومجددي أولاً شرع والشمس رأداً الضحى كالشمس في الطفل

فيمَ الإقامةُ بالزَّوْراءِ لا سَكْنَى فيها ولا ناقتى فيها ولا جَمَلِي

وهذه القصيدة من أروع ما كتب في الفخر وعزة النفس . وقد أودعها الشاعر ثورة نفسه أمام الحدثان ، وراح فيها يفصل أمجاده ، ويصور طوايا تلك النفس ، ويتوثب توثباً حافلاً بالقيم المعنوية ، حافلاً بالرصانة المتجبرة ، التي لا تذللها الصعاب ولا تلوى بها الأيام ، في انطلاق شعري مملوء بالإبداع .

الفخر المداق بعد العهد العباسي

وصل الفخر الداق سيره عند العرب ، وقد أخذ يتقلص ظله شيئاً فشيئاً ويتضاءل في العصور المتأخرة ، لانتشار الحضارة الحديثة وازدياد الوعي الشخصي . ولئن سمعت له أصداً من آن إلى آخر فما ذلك إلا ترديد للنغمات السابقة والأساليب السابقة في غير انطلاق ولا عمق .

الفصل الثاني

الفخر الحزبي

نما هذا النوع من الشعر في العهد الأموي ، وقد اصطبغ بصبغة السياسة ، وذلك أنه لما بويغ على بن أبي طالب وقع خلاف سياسي شديد في شأن الخلافة ، وقد اتهم على بترأخيه في القبض على قتلة عثمان بن عفان ، وقام في وجهه ابن الزبير يناصبه العداء ، كما قام في وجهه معاوية بن أبي سفيان يطالب بدم عثمان ويطمع في الملك ؛ وقام في وجهه على ومعاوية حزب الخوارج يحارب هذا وذاك . وهكذا انقسم العرب أحزاباً ، فن شيعة يناصرون بيت علي ، إلى زبيريين يشايعون آل الزبير ، إلى خوارج ينهضون في وجه الاستبداد ، إلى أمويين على عرش الخلافة يذودون عن سلطانهم بشدة ، وهكذا كان لكل حزب شعراء يساندونه بأقلامهم ، وكان شعرهم حماسياً شديداً للهجة لأنه شعر العواطف المتناحرة في سبيل الحياة والدين والحرية والسيادة . ومن أولئك الشعراء قطري ابن الفجاءة ، وعمران بن حطان ، والطرماح بن حكيم ، وعمرو بن الحصين للخوارج ، والكميت الأسدي وكثير عزة للشيعية ، وعبيد الله بن قيس الرقيات للزبيريين ، وأبو العباس الأعمى وأعشى ربيعة والناطقة الشيباني وعدى بن الرواح وكعب الأشقرى للأمويين .

وإلى جنب هؤلاء جميعاً ثلاثة شعراء هم في الدروة لذلك العهد ، أعنى بهم الأخطل والفرزدق وجريراً . وإنهم ، وإن لم يكونوا من شعراء السياسة بكل ما في الكلمة من معنى ، لتغلب العصبية القبلية عليهم ، قد عاشوا في ظل بني أمية واتصلوا بالأحزاب السياسية ورأوا فيها وسيلة يتدفعون بها للوصول إلى غايتهم القبلية ،

ثم إنهم في ملاحياتهم الشهيرة مزجوا الفخر الذائق بالفخر الحماسي والفخر الحزبي ولذلك لم نر بأساً في التعرض لهم في هذا الباب .

وإننا إذا ألقينا نظرة على الفخر الحزبي في هذا العهد نرجع بما رجع به الدكتور زكي المحاسنى إذ قال : « لا يكاد يأخذ بإعجابي وصف حرب قاله أحد شعراء العصر الأموى ، فأرى خلاله رهط المقاتلين يتلاحمون بين الحياة والموت ، وألمح لمعات الأسنة والسيوف تقع في اللبات والنحور ، وأسمع زمازم الجيش تمور في حومة الوعى ، حتى يعكر على صفاء هذه الصورة وبراعة هذا الوصف أبيات في أواخر القصيدة أو في أثنائها ، يحاول بها الشاعر أن يعنى على آثار قوم آخرين في الشجاعة والبأس . وقد لا يتورع عن إيلدائهم بالهجاء ، وسلبهم كل خصال المروءة والحمية التي عرفت فيهم . فهو أبدأ يسعى إلى إعلاء قومه ، فيخلع عليهم صفات المكارم والفضائل ، وينزعها عن سواهم ، حتى بات كثير من أقوال هذه الطائفة من الشعراء منوطاً علاؤه بخفض غيرهم . وكلما زاد تهجين الشاعر لأعدائه وذمه إياهم ، انطلق جناحاه في أجواء الثناء على نفسه وعلى قومه . وقد تأثر الشعر العربي من فواتحه إلى خواتيمه في شعر الفخر ، فوجدته يمحى على هذا الغرار في عصر بني أمية . فإذا كان الشعر في وصف الحرب تناول قائلوه هذه الطريقة ، فذموا شجاعة غيرهم ومدحوا أنفسهم وبطولتهم . وقد لا يظل هذا المدح والهجاء في قصيدة الشاعر الواحد ، وإنما يتجاوزانه إلى أكثر من شاعر ، فينبى من يقول قصيدة أو أبياناً في ذم خصومه في الحرب ، وحمد قومه ، فيتصدى له شاعر آخر يرد عليه بذمه ومدح نفسه وقومه ، ثم يدخل آخرون في الحلقة بمثل ديدن السابقين ، فتصبح معالم الوصف الصادق مشوهة على من جاء يتقرى ، فيحار متلمساً أى قوم أشجع وأفتك ، وأشد بأساً في وقية ، وأى معشر فيهم سجايا الفروسية ، ولأى كتب النصر ؟ » .

١ - شعر الخوارج :

شعر الحرب عند الخوارج صورة ثورة دينية عنيدة ، وصورة شجاعة جبارة ؛
هو شعر يكتب بشفار السيوف ، ورؤوس الرماح ؛ هو شعر الاستبانة في سبيل الغاية
المثلى التى يناضلون لأجلها ، والتي يحسمونها في قولهم أبداً : « لا حكم إلا لله ! »
وقطرى بن الفجاءة هو ذلك الشاعر الذى يضطرم شعره حماسة وإقداماً ،
وهو الذى خاض المعارك فى بطولة ما بعدها بطولة ، وقد اشترك فى حرب
« دولاب » التى جهز إليها ابن الزبير أمير البصرة جيشاً لجباً ، والتى دامت
عشرين يوماً . وقد انتصر الخوارج انتصاراً عظيماً ، فقال ابن الفجاءة ذاكراً
زوجته أم حكيم وواصفاً الحرب :

لعمرك إننى فى الحياة لزاهدٌ وفى العيش مالم ألقى أم حكيم ..
ولو شهدتنى يوم دولاب أبصرتُ طعاناً فنى فى الحرب غير ذمير
غداة طغَتْ فى الماء بكر بن وائلٍ وعجنا صدور الخيل نحوتهم

هكذا كان قطرى بن الفجاءة : عقيدة ثابتة ، وشجاعة فؤارة . فهو رجل
تدين ، وهو رجل حرب ، وشعره حافل بالروح « التى تزجر المتخاذلين ،
وتنضح بالقتال » ، لأن الحياة زائلة ، وشرف الموت على حد السيوف أعز وأبقى .
أما عمرو بن الحصين فهو من شعراء الخوارج أيضاً وقد شهد يوم قديد -
وهو مكان بالقرب من المدينة - ووصف الخوارج فى حربهم تلك .

ب - شعر الشيعة :

كان أهل الشيعة فى شعرهم الحربى أقل فرسية من الخوارج ، وكانوا ذوى
ثورة وطمع فى الخلافة ، ولذلك وجه إليهم بنو أمية أشد ضرياتهم . وشعر الشيعة

هو شعر السخط والحزن ، وهو يرمى إلى الجهاد في سبيل الخلافة ، وذلك في أسلوب يتقلب بين الهدوء والثورة ، والرزق والحزن ، بحسب ما تقتضيه حال الاحتجاج أو الغضب أو الألم .

وللكميت بن زيد الأسدي الشاعر الشيعي في هاشمياته قصيدتان رائعتان في الحرب ، قال في إحداهما واصفاً أبطال شيعته :

فَهُمُ الْأَسَدُ فِي الْوُغَى لَا الْوَلَوِيَّ بَيْنَ خَيْسِ الْعَرِينِ وَالْآجَامِ
أَسَدُ حَرْبٍ غُيُوثُ جَذَبَ بِهِالِيهِ لُ مَقَاوِيلُ غَيْرَ مَا أَفْدَامِ
سَادَةٌ ذَادَةٌ عَنِ الْخُرْدِ الْبِي ضِ إِذَا الْيَوْمُ بَصَارَ كَالْأَيَّامِ
لَا كَعْبِدِ الْمَلِكِ أَوْ كَوَلِيدِ أَوْ سَلْيَانَ يَعْدُ أَوْ كَهْشَامِ

ح - شعر الزبيريين :

لقد أنكر الزبيريون على بنى أمية جعلهم الخلافة وراثية فيما بينهم دون سائر قريش . وكانوا من العاملين في سبيل الأرستقراطية .

وشعر ابن قيس الرقيات حافل بوصف قتال الزبيريين وإقدامهم ، حافل بوصف بطولته ، مملوء بالحماسة والفروسية . قال يمدح ابن الزبير وأخاه مصعباً :

وَالزَّبِيرُ الَّذِي أَجَابَ رَسُولَ اللَّهِ فِي الْكَرْبِ وَالْبَلَاءِ بِلَاءِ
وَالَّذِي نَغَّصَ ابْنَ دُومَةَ مَا تَو حَى الشَّيَاطِينِ ، وَالسِّيَوفُ ظِمَاءِ
فَأَبَاحَ الْعِرَاقَ يَضْرِبُ بِالْمُنْدِ صَمِلَ صِلَتًا ، وَفِي الضَّرَابِ غِلَاءِ
إِنَّمَا مُصِيبٌ شَهَابٌ مِنَ اللَّهِ تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ الظُّلُمَاءِ
مُلْكُهُ مُلْكُ قُوَّةٍ لَيْسَ فِيهِ جَبَرُوتٌ وَلَا بِهِ كِبَرِيَاءِ

ولما فر الشاعر من وجه بنى أمية والتحق بفلسطين نازلاً على أهل له من
بنى كنانة ، نظم قصيدة استهلها بالغزل ثم فخر بقومه وفروسيته ، قال :
حَلَقْتُ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ حَوْلِي بِفِلَسْطِينَ يُسْرِعُونَ الْكُوبَا.
مِنْ رِجَالٍ تُفْنِي الرِّجَالَ وَخَيْلٍ رَجُمَ بِالْقَنَا تَسُدُّ الْغُيُوبَا
لَا يُبَالُونَ مَنْ أَقَامَ إِذَا مَا كَشَفُوا بِالسُّيُوفِ يَوْمًا عَصِيبَا
إِنَّ قَوْمَ الْفَتَى هُمُ الْكَنْزُ فِي دُنْ يَاهُ وَالْحَالُ يُسْرِعُ التَّقْلِيْبَا ..

إلى غير ذلك مما حفلت به قصائد الشاعر ومما يطلعنا على موقفه وهو القرشي
الأصل ، الزبيرى الهوى ، الذى مدح عبد الله بن الزبير فى حربه وفى سلمه ، والذى
أراد لقومه العزة والسلطان ، وصارح بنى أمية العداوة ، وكان بوقاً مدوياً على
كل حال .

د - شعر الأمويين :

رأى الناس فى الأمويين رجال سياسة ، وطلاب دنيا وملك ، اعتمدوا على
قوة السيف والمال والعقل فى تأييد عرشهم ، فجئح إليهم الشعب طمعاً فى ما لهم
أو خوفاً من بأسهم . وكان أكثر الشعراء المنتمين إلى حزبهم من ذوى المنفعة ،
الذين يمدحون ملوكهم لأجل الطمع أو الخوف ، وليس فى شعرهم كثير جدّة من
الناحية الفنية ، فهو يدور حول المديح بالصفات العامة كالكرم ، والحلم ،
وحسن السياسة ، والمجد القديم ، والحظ المواتى وما إلى ذلك . ومن أخلص الشعراء
عاطفة لبنى أمية كعب الأشقرى ، الذى كان من أعظم وصافى الحرب فى العصر الأموى .

• كعب الأشقرى : هو من الشعراء الفرسان الذين اشتركوا فى الفتح وشهدوا
حروب الأزارقة . وقد نظم قصيدة مشهورة وأنشدها فى حضرة الحجاج لما تغلب
المهلب بن أبى صفرة على الخوارج . وهى قصيدة تقع فى أربعة وثمانين

بيتاً ، وتدور كلها حول الحرب ووصف القتال تتبع فيها الشاعر جيش بني أمية وجيش الخوارج في مختلف المواقف ، في لهجة حماسية شديدة ، وإليك شيئاً منها :

يا حفص إني عدائي عنكم السفر
علقت يا كعب بعد الشيب غانية
واشدت الحرب والبلوى وحل بنا
تلبسوا لِقراع الحرب بزتها
ساروا بالولية للمجد قد رفعت
قتلى هنالك لا عقل ولا قود
باتت كتائبنا تردى مسومة
عبوا جنودهم بالسفح إذ نزلوا
لاقوا كتائب لا يخلون ثغرهم
صفان بالقاع كالطودين بينهما
يمشون في البيض والأبدان إذ وزدوا
وشيعنا حوله منّا مللمة
ندوسهم بعناجيج مجففة
في معرك تحسب القتلى بساحتها
في كل يوم تلاقى الأزد مفضة

وقد أرقفت فأذى عيني السهر
والشيب فيه عن الأهواء مزدجر
أمر تشمر في أمثال الأزد
فأصبحوا من وراء الجسر قد عبروا
وتحتهن ليوث في الوغى وقر
منّا ومنهم دماء سفكها هدر
حول المهلب حتى نور القمر
بكارزون فما عزوا ولا ظفروا
فيهم على من يقاسى حربهم صعر
كالبرق يلتمع حتى يشخص البصر
مشى الزوامل تهدي صفهم زمر^(١)
حي من الأزد فيما نابهم صبر
وبيدنا ثم من صم القنا كسر^(٢)
أعجاز نخل زفته الريح ينقعر
يشيب في ساعة من هولها الشعر

(١) الزوامل : الإبل المحملة .

(٢) العناجيج : جياد الخيل والإبل .

والأزد قوى خيارُ القومِ قد علموا إذا قروهم يوم الوغى خطرُوا
حىَّ بأسيافهم يبغونَ مجدَهُم إِنَّ المكارمَ فى المكروه تبتدُرُ
لولا المهلبُ للجيش الذى وَرَدُوا أنهار كرمَان بعد الله ما صدرُوا

ويمضى كعب الأشقرى فى ملحمة هذه ، وإذا أنت أمام حرب طاحنة
يشيب لها الشعر ، وقد التى الجيشان فى زرد الحديد ، وفوقهم البنود خفاقة ،
وتحتهم الخيول المطهمة . والجيشان طودا قوّة وشجاعة وبأس . ولما اعتمصم
الخوارج وراء الجسر ، جاز إليهم الأمويون ، فالتحم القتال ولعت السيوف ،
وانقض الهول انقباض الصواعق ، وجرت الدماء سيولاً ، فانسحل الخوارج
من المعركة ، فاتبعهم جيش بنى أمية ، وعاد القتال إلى الالتحام ، واشتدت
الحال على الخوارج ، فهلك منهم عدد كبير ولاذ الباقيون بالفرار .

وهكذا كان الأشقرى من أعظم وصافى الحرب فى العهد الأموى ، وهكذا
كانت قصيدته من أروع القصائد الحربية لأنها جمعت الاستيفاء ، إلى الدقة ،
إلى التدفق والانطلاق ، إلى الواقعية المضخمة تضخيم ملحمة لا يخرج عن
حدود المعقول ، إلى تفصيل مواقف الجيشين وتتبع حركاتهما فى لهفة وصدق
عاطفة ، إلى الاعتراف بمناعة صفوف الأعداء وحسن بلائهم فى الطعان .

ولئن فخر الأشقرى بقومه الأزد فإنه كان من الشعراء النادرين الذين أخلصوا
العاطفة لبنى أمية فصدقوا فى وصف حروبهم ، ومدحهم بما كانوا له أهلاً من
الفعال والحصل الحميدة .

هـ - شعر المثلث الأموى :

وهنالك شعراء ثلاثة عرفوا بالمثلث الأموى ، وكان مدار فخرهم حول الذات

والقبيلة والحزب . . وهم الأخطل والقرزدق وجريير .

والجرب والفيخر في شعر الأخطل محل واسع ، أما الحرب فقد أتى منها على ذكر عدة مواقع كانت لقومه على أعدائهم . ذكر يوم الثرار - وهو واد عظيم في الجزيرة السورية يمدّه الماء في الشتاء - وقد دارت رحى القتال فيه بين بني تغلب وقبائل القيسية ، وكان يوماً شديداً الوطأة ، يوماً أربدت سماؤه ، وانتشر الموت في صفوف المتقاتلين انتشاراً عظيماً ، وجرت الدماء على الأرض سيولاً ، وأثبت كل بطل في مستنقع الموت رجله ، وقال لها من تحت أخمصك الحشر .

وذكر الأخطل يوم « إراب » وكان النصر فيه لقوم الأخطل على القيسية وقوم جريير ، فقال :

ولقد سما لكم الهديل فنالكم	بإراب حيث يقسم الأنفالا (١)
في فيلتي يدعوا الأراقم لم تكن	فرسانه عزلاً ولا أكفالا (٢)
بالخيل ساهمة الوجوه كأنما	خالطن من عمل الوجيف سلالا
فسقين من عادين كأساء مرة	وأزلن حد بني الحباب فزالا
فأنع بضائك يا جريير فإنما	منتك نفسك في الخلا ضلالا

وأما فخر الأخطل فقد اصطبغ بالصبغة السياسية ، وهو يدخل في المدح والهجاء مظهراً لبني أمية ما لتغلب من الأيادي البيض ، ومظهراً ما لصاحبه من كرم الأصل ومن التفوق على خصمه . واصطبغ فخر الأخطل أيضاً بالصبغة الجاهلية التي تعتمد تعداد الأجداد القبلية في النفس ، والتي لمسناها في شعره الحربي قال :

(١) الهديل : هو الهديل بن هيرة التغلبي .

(٢) الأكفالا ج كفل وهو الرجل يكون في مؤخر الحرب همه التأخر والفرار .

بَنَى أُمَيَّةٌ قَدْ نَاضَلْتُ دُونَكُمْ . أَبْنَاءُ قَوْمٍ هُمُ آوَا وَهُمْ نَصَرُوا (١)
أَفَحَمْتُ عَنْكُمْ بَنَى النَّجَارِ قَدْ عَلِمْتُ . عَلِيًّا مَعَدَّ وَكَانُوا طَالَمَا هَدَرُوا (٢)
حَتَّى اسْتَكَانُوا وَهُمْ مِنْنَى عَلَى مَضْضٍ . وَالْقَوْلُ يَنْفَعُ مَا لَا تَنْفَعُ الْإِبْرُ

أما فخر الفرزدق فقد قيل فيه :

« ديوان الفرزدق في حقيقته يكاد يكون دفاعاً خالصاً عن قومه ، وتمجيداً
غالباً ، فهو أشبه ما يكون بخطبة أو خطب ، قيلت في مدحهم والفخر بهم فخراً
لا تجف مادته في نفسه ، إذ كان يستمد من معين لا ينضب ، وكأنه يغرف من
بحر تمدد أبحر ، فهو لسان قبيلته ، وسحب الفخر بها ما تزال تنعقد شعراً على
هذا اللسان الرطب برائع القول وجزله . »

والفرزدق يجعل قصائد الهجو في جو وسيع من الفخر والتبجح ، وقد
يفتحها بالفخر . فيأتي خصمه أبداً من عل ، ولهذا قيل : « الفرزدق إذا هجا
ارتفع » . يرتفع على جرير خصبوصاً ، وكان جرير من أحقر بيوت تميم ،
والفرزدق من أشرفها ؛ فكلما أقبل الفرزدق على هجائه تعالى عليه ، ووازن بين
الشرف والحقارة ، وأخذ بتعداد آبائه وأجداده ، مفصلاً ما أثرهم في الجاهلية
والإسلام . وهكذا كان قومه في نظره أعز العرب بيتاً ، وأرفعهم شرفاً ، وأوسعهم
خيلاً وكرماً . هم ذوو العقول التي توازي الجبال ، والثبات الذي لا يتزعزع ،
والشجاعة التي تفوق كل شجاعة . . . وهكذا كان هو في نظر نفسه كريماً
كالبحر ، شجاعاً كالأسد ، ربيعاً كالبدور ، مؤلماً كالحية ، قد ورث الشعر
من امرئ القيس والمهلhel وطرفة الأعشى وغيرهم من كبار الشعراء .

(١) يعني الأنصار .

(٢) بنو النجار : قوم من الأنصار منهم الشاعر حسان بن ثابت . عليا معد : يريد بني قريش .

وإذا فخر الفرزدق اتسعت آفاقه ، واشتدت لهجته ، وطال نفسه ، وقويت عبارته ، ولكنه يضطرب في ميدان قلما يتبدل ، ويأتى بمعان قليلة التنوع .

وقد مزج جرير المدح بالفخر ، والهجاء بوصف الحرب وذكر الأيام ، وأكثر من وصف الخيل وتصوير الفروسية .

وهكذا فخر جرير بسيفه ولسانه ، وإذا سيفه أمضى السيوف وإذا لسانه شديد الوطأة :

جَرَى الْجَنَانُ لَا أَهَابُ مِنَ الرَّدَى إِذَا مَا جَعَلْتُ السَّيْفَ قَبْضَ بَنَانِيَا
وليس لسيني في العظام بَقِيَّةٌ وللسَّيْفِ أَشْوَى وَقْعَةٍ مِنْ لِسْمَانِيَا

هذا هو سيف جرير ، وهذا لسانه ، وللسيف عنده أنجح من اللسان في رقاب جماعة أضاعوا الشرف ، وأضاعوا كل إحساس أمام كلمة تُقال ، ولوم يوجه ، وهجاء ينشر . وسيفه بتار يمدد قلب جرير ، وساعد شديد ، ونفس لا تنهاب الموت .

وهكذا فخر جرير بشاعريته التي تنقض على الشعراء بالصواعق فتريدهم صفوفاً صفوفاً ! وفخر بإسلامه ومضريته — وفي مضر النبوة والخلافة — ، وتعالى بهما على الأنخل التغلبي وقال :

إِنَّ الَّذِي حَرَّمَ الْمَكَارِمَ تَغْلِيْبًا جَعَلَ الْخِلَافَةَ وَالنُّبُوَّةَ فِينَا

وإذا هجا الفرزدق اصطدم بأصله ، وأصل الفرزدق من أصله . وكلاهما من تميم ، وتميم أصل كريم ، وشجرة باسقة الأغصان ، وفروة من ذرى المجد :

إِذَا غَضِبْتَ عَلَيْكَ بَنُو تَمِيمٍ حَسِبْتَ النَّاسَ كُلَّهُمْ غَضَابًا

إلا أن لم يتم فروغاً عدة ، وفزع الفرزدق أشرف من فرع جرير ، ولهذا لم يستطع جرير أن يطاول الفرزدق في الآباء والأجداد ، ولم يستطع أن يحول معه في هذا الميدان جولات واسعة ، فاكتفى بذلك بعض الأيام التي كانت لبني يربوع قومه ، كما أعين على الفرزدق بأيام خذل فيها قومه بنو دارم وأخولته بنو ضبة .

وإذا هجا جرير الأخطل ذكر حروب قومه وهم حلفاء القيسية وذكر مواقعهم مع بني تغلب وقال :

وَنَعْرِفُ حَقَّ النَّازِلِينَ وَلَمْ يَزَلْ فَوَارُسُنَا يَحْمُونَ قَاصِيَةَ السَّرْبِ
عَلَى مُقَرَّبَاتٍ هُنَّ مَعْقِلٌ مِنْ جَنَى وَهَمُّ الْعِدَى وَالْمُنْجِيَاتِ مِنَ الْكَرْبِ
أَلَا رُبَّ جَبَّارٍ وَطِئْنَ جَبِينَهُ صَرِيحاً وَهَبَ قَدْ حَوِينَ إِلَى تَهْبِ
وَقَدْ أَوْرَدَتْ قَيْسُ عَلِيكَ وَخَذِفٌ فَوَارِسَ هَدْمُنَ الْحِيَاضِ الَّتِي تَجْبِي

أما فخر جرير فكان استعلاء وتعييراً ، وكان ممزوجاً بالهجاء ، وكان انقضاضاً صاعقاً مدوياً ، يحفل بالعاطفة الصاخبة القوية ، وتعصف به موسيقى حربية أخاذة .

* * *

تلك كانت مظاهر الفخر في العهد الأموي ، وقد تطاحنت فيه الأحزاب تطاحناً شديداً ؛ وإن من تتبع الشعر العربي في هذا العهد يجدده شديد الاقتراب من الشعر الجاهلي في حقل الحماسة والفخر ، تشديد التزوع إلى ذكر الأيام وتعداد الأجداد ، وهو إلى ذلك قد امتاز بانسحاق الآفاق الاجتماعية والسياسية والدينية ، وازداد غلواً وإغراقاً في وصف الحروب وأدواتها ، وازداد تتبعاً لحركات الجيوش ، كما ازداد نزوعاً إلى التعبير بالحجازي ، والإقذاع في ذلك التعبير .

الفصل الثالث

الفخر الدينى أو الحماسة الدينية

لما جاء الإسلام ضم العرب تحت لواء واحد ، ودعاهم إلى بسط سلطانه ، فكانت الخطوة الأولى فى ذلك « غزوات » الرسول (صلعم) ، ثم كانت الخطوات الأخرى حروب الفتح ، وكان الميدان واسعاً جداً يمتد من شبه الجزيرة ، إلى مصر إلى العراق ، إلى الشام ، إلى فارس ، إلى أوربة ؛ وكان الأبطال ورجال الحرب والسياسة كوكبات كوكبات ! وكان العراك شديداً ، والجيش جرارة ، وكان الشعر ينطلق مدوياً ، وهو لا يختلف فى شىء عن الحماسة الجاهلية إلا فى مصدره الدينى ، وصبغته الدينية الجديدة ، وخروجه عن حدود الفردية والقبلية إلى أجواء القومية العربية الإسلامية .

وما يروى فى هذا الصدد أن عياض بن غنم كتب إلى خالد بن الوليد يستنجد به حين كان يحاصر « دومة الجندل » ، فكتب إليه خالد : من خالد إلى عياض : إياك أريد .

لَبِثَ قَلِيلًا تَأْتِكَ الْحُلَاثِبُ يَحْمِلُنَ آسَادَ أَعْلِيهَا الْقَاشِبُ^(١)

كُتَائِبٌ تَتَّبِعُهَا كُتَائِبٌ

ولما تغلب المنفى بن حارثة الشيبانى ، فى عهد عمر بن الخطاب ، على الفرس

(١) الحلاثب : النوق . القاشب : السيف الصقيل .

في موقعة « البويب » بالعراق ، وقتل مهران قائدهم ، قال الأعور الشنّي مشيداً
ببطولة المثنى بن حارثة :

هَاجَتْ لِأَعُورَ دَارَ الْحَيِّ أَحْزَانَا وَاسْتَبَدَلْتُ بَعْدَ عَبْدِ الْقَيْسِ هَمْدَانَا
وَقَدْ أَرَانَا بِهَا وَالشُّمْلُ مَجْتَمِعٌ إِذْ بِالنُّخَيْلَةِ قَتَلِي جُنْدِي مِهْرَانَا (١)
أَزْمَانَ سَارَ الْمَثْنَى بِالْخِيُولِ لَهُمْ فَقُتِلَ الْقَوْمُ مِنْ فُرْسٍ وَجِيْلَانَا
سَمَا لِأَجْنَادِ مِهْرَانٍ وَشِيعَتِهِ حَتَّى أَبَادَهُمْ مَثْنَى وَوَحْدَانَا
مَا لَنْ رَأَيْنَا أَمِيرًا بِالْعِرَاقِ مَضَى مِثْلَ الْمَثْنَى الَّذِي مِنْ آلِ شَيْبَانَا
إِنَّ الْمَثْنَى الْأَمِيرُ الْقَرَمُ لَا كَذِبٌ فِي الْحَرْبِ أَشْجَعُ مِنْ لَيْثٍ بِخَفَانَا (٢)

وفي يوم « مؤتة » ، وقد قاتل العرب قوماً يفوقونهم عدداً ، واستماتوا في ساحة
الحرب بل مات أبطالهم جميعاً الواحد بعد الآخر ، وكان كل منهم يحمل راية
المسلمين ، وقف عبد الله بن رواحة يقول وفي يده الراية :

أَقْسَمْتُ يَا نَفْسُ لَتَنْزِلَنَّ لَتَنْزِلَنَّ أَوْ لَتُسْكِرَهِنَّ
إِنْ أَجْلَبَ النَّاسُ وَشَدُّوا الرِّنَّةَ مَا لِي أَرَاكِ تَكْرِهِينَ الْجَنَّةَ
يَا نَفْسُ إِلَّا تُقْتَلِي تَمُوتِي هَذَا حِمَامُ الْمَوْتِ قَدْ صُلِيَتْ
وَمَا تَمْنَيْتِ فَقَدْ أُعْطِيَتْ إِنْ تَفْعَلِي فِعْلَهُمَا هُدَيْتِ
ثم ظل يقاتل حتى قتل .

وفي يوم القادسية نسمع أبا محجن الثقفي يتغنى بحسن بلائه ويقول :

(١) النخيلة : مكان بالعراق قرب نهر البويب .

(٢) خفان : مأسدة مشهورة قرب الكوفة .

لَقَدْ عَلِمَتْ ثَقِيفٌ ، غَيْرَ فَخْرٍ ، بَأَنَّا نَحْنُ أَكْرَمُهَا سِوَفَا
وَأَكْثَرُهُمْ دُرُوعًا سَابِغَاتٍ وَأَصْبِرُهُمْ إِذَا كَرِهُوا الْوُقُوفَا
فَإِنْ أَحْبَبَسَ فَذَلِكُمْ بِلَايِي وَإِنْ أَتَرَكَ أَذِيقَهُمُ الْحَتُوفَا

وهكذا نسمع الشعر يملأ الأجواء متغنياً بانتشار الدين الجديد ، في لحظة حافلة بعزة النصر ، والإيمان الحى ، والشجاعة المقعدة على العقيدة الثابتة . وإن في ما وجه إلى الرسول (صلعم) من مدائح ، روائع فخرية حماسية تهز النفوس والقلوب هزاً .

ومن ذلك قول النابغة الجعدي :

خَلِيلِي عُوجَا سَاعَةً وَتَهْجُرَا وَنُوحَا عَلَى مَا أَحْدَثَ الدَّهْرُ أَوْ ذَرَا
وَلَا تَجْزَعَا إِنْ الْحَيَاةُ ذَمِيمَةٌ فَمُخْفَا لِرُوعَاتِ الْحَوَادِثِ أَوْ قِرَا
وَإِنْ جَاءَ أَمْرٌ لَا تُطِيقَانِ دَفْعَهُ فَلَا تَجْزَعَا مِمَّا قَضَى اللَّهُ وَاصْبِرَا
أَلَمْ تَرِيَا أَنَّ الْمَلَامَةَ نَفَعُهَا قَلِيلٌ إِذَا مَا الشَّيْءُ وُلَّى وَأَدْبِرَا
تَهْجِجُ الْبَكَاءِ وَالنَّدَامَةِ ثَمَ لَا تَغْيِيرُ شَيْئاً غَيْرَ مَا كَانَ قُدْرَا
أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ إِذْ جَاءَ بِالْهُدَى وَيَتَلَوُ كِتَاباً كَالْمَجْرَّةِ نَيْرَا
أَقِمْ عَلَى التَّقْوَى وَأَرْضَى بِفَعْلِهَا وَكُنْتُ مِنَ النَّارِ الْمَخُوفَةِ أَخْلَرَا

ومنها في الفخر :

وَلَمَّا لَقِوْهُ مَا تَعُودُ خَيْلُنَا - إِذَا مَا التَّقِينَا - أَنْ تَحِيلَ وَتَنْفِرَا
وَنُشْكِرُ يَوْمَ الرُّوعِ أَلْوَانَ خَيْلِنَا مِنْ الطَّعْنِ حَتَّى نَحْسِبَ الْجُونَ أَشْقَرَا !

بلغنسا السماء مجدنا وجدودنا ولنا لندرجو فوق ذلك مظهرها
ولا خير في حلم إذا لم تكن له بوادر تخمى صفوه أن يكدرها
ولا خير في جهل إذا لم يكن له حلم إذا ما أورد الأمر أضدرا

* * *

ولنا نستطيع أن نضيف إلى هذا الفخر الديني ما نظمته الشعراء على ممر
العصور من المدائح النبوية وما إلى ذلك ، من مثل البردة للبوصيري ونهج البردة
لأحمد شوقي ، ولنا نلمس في تلك القصائد من الحماسة الدينية الصادقة ومن
الروعة الشعرية والبيانية ، ما يجعل لتلك القصائد محلاً مرموقاً في عالم الأدب .

الفصل الرابع

الفخر الحماسى

فطر العربى على الحماسة كما فطر عليها كل إنسان ، وذلك أن حب الحياة حمل الناس على النزاع فى سبيل الحياة ، وإذا الأرض ميدان واسع لتنازع البقاء ، وإذا الناس اثنان : غاز ومغزو ؛ أو هم بالحرى تارة مغزون وطوراً غازون . وهم فى كل حال جماعة جلاد وقتال ، يقوم فيما بينهم من يبقو لذلك القتال ، ويدعو إليه ، ويبث الحماسة فى صدور الأبطال ، أو يسجل المواقع بكلام منظوم هو الشعر الحماسى . وهذا الشعر الحماسى نشأ عند جميع الشعوب نشأة بدائية مقطعة الأوصال ، يرافق نبضات القلوب ، وغضبات السيوف ، ثم راح مع الأيام ، عند الشعوب المتقدمة فى سبيل المدنية والوعى ، يصور دأى الذكريات وروائع المشاهد ، ويتغنى بالبطولات القومية ، ويعلق أطرافها بأعمال بطل من الأبطال ، ويضخم المواقف ، ويرفعها إلى أجواء الخوارق ، فى قصص مملوءة بالحياة ، وفى وصف رائع الألوان ، وهكذا كانت الملحمة .

ولأكثر أمم الأرض ملاحم شعرية سطرت فيها الأجداد القومية ، وخلال العظمة التى ورثها الأبناء عن الآباء ؛ فلائمة اليونان إلياذة هوميروس وأوديسته ، وفيهما إحياء الحرب الطروادية مضخمة ، ولأمة الرومان إلياذة فرجيليوس وفيها ذكر مغامرات البطل إيناس جد روموس ورومولوس ؛ ولأمة الهنود ملحمة الرامايانا للشاعر فالميكى فى ثمانية وأربعين ألف بيت من الشعر ، وفيها الشيء الكثير من تاريخ الهند القديم ؛ ولهم أيضاً ملحمة المهابارتا فى نحو مائة ألف بيت من الشعر ، ولأمة الفرس شاهنامه الفردوسى وهى سفر تلك الأمة وسجل أعمال

الأكاسرة وأعمال أبطال فارس ، ولأمة الألمان ملحمة النييبولونغاليد وهى من آثار القرن الثالث عشر للميلاد ، وقد دارت حول بطولات الفتى المغوار سيغفريد وحول مغامراته الغرامية ، ولأمة الفرنسين ملحمة رولان التى ضمت مجد فرنسا فى عصورها القديمة .

وهكذا كان لكل أمة من تغنى بأمجادها ، وهكذا كانت الملحمة قصة شعرية لأعمال بطولة خارقة . ولئن فات العرب أن ينشثوا ملحمة ، وأن يقوم فيما بينهم من يجمع شعرهم الحربى ويربط بين أجزائه ، وفى وحدة عمل قصصى ، وفى وحدة هدف وغاية ، ولئن حال دون ذلك ، عند العرب ، قلة انطلاقتهم وراء التخيلات الميثولوجية والخوارق الغيبية ، وضعف صبرهم على الحديث الطويل والرواية التى تطلب جلداً وتحليلاً وإعمال فكر وسعة خيال ، وخروجاً عن حيز الذات والمنفعة القريبة المثال ، ولئن حال دون ذلك عندهم انصراف شعرائهم إلى استخدام الشعر للتعيش عن أقرب سبيل ، وإلى جعل الأدب فى خدمة البلاط والمناسبات ، فلم يفهم أن يخوضوا المعارك بأقلامهم ، وأن يسردوا القصص الحربى ويصفوا مواقف القتال ، وأن يجعلوا أنفسهم على المسرح مفاخرين ، متوثنين ، منفعلين ، على غير سنة الملاحم التى تطلب من الشاعر أن يكون راوية يروى أعمال غيره . وأن يسير العمل من وراء الستار .

وهكذا ، إن حرم الأدب العربى الملحمة المشبهة للملاحم الأهم المشهورة ، فلم يحرم تلك الملحمة الكبرى من الشعر الحماسى ، إلا أن تلك الملحمة مقطعة الأوصال ، قد اشترك فى وضعها عدد لا يحصى من الشعراء ، وقد عمل على جمع شتاتها عدد من الأدباء من مثل أبى تمام والبحترى وغيرهما ، فى دواوين كبرى تورد القصيدة أو المقطوعة إلى جنب القصيدة أو المقطوعة ، من غير ما واصل إلا واصل الحوار والموضوع الواحد . ولو أتيج لتلك القصائد من يؤلف ويربط لكان للعرب من عنترة الفوارس ، وجساس بن مرة ، وكليب بن ربيعة ، والحارث

ابن ظالم ، وغيرهم أشباه آشيل وأغا ممنون عند اليونان ، ورستم والأسفنديار عند الفرس ، ورولان عند الفرنسيين .

ولا سيما — على حدّ قول زكى المحاسنى — « وإنّ في المعلقات الجاهلية العشر ، وفي سائر ما نظم الشعراء الجاهليون ، لما يتنخل منه ملحمة عربية كبرى قيلت في الجاهلية . لأنّ خواطر أصحابها الشعراء متقاربة ، بل تكاد تكون متحاذاة ومتشابهة . وقد يضؤل الشبه بين كثير من خواطر الشعراء الجاهليين فتبدو صورهم الفنية متماثلة كل التماثل . فلدى طرفة بن عبد مقطوعات في معان جاء بمثلها امرؤ القيس ، كما أن لديه أبياتاً هي ذاتها عند ضريعه تغير قوافيها فحسب ، وإنّ في وحدة معاشيهم وطبيعة أرضهم المتشابهة ، وانبساط آفاق الرمل بين أعينهم ، وتظللهم تحت الخيام ، وعيشهم الراتب على المدر والحجر وفي الوبر ، لما طبعهم جميعاً على غرار واحد ، فألف بين مثالات معانيهم وخواطريهم ، وضروب تصوريهم ، مع اختلاف قليل في أساليبهم . على أن البصير في أساليب المعلقات العشر ، واجد فيها شبيهاً في النسيج والمعنى ، مما يساعد على الأخذ بهذه النظرية التي أقول فيها باحتمال التأليف للمحمة عربية جاهلية . . . تمثل فروسية الجاهلية ، وتذكر حروبها وأيامها بالتسلسل والترتيب . . . فللعرب في جاهليتهم وإسلامهم مواقف قلّ مثيلها عند الأمم المخاربة القديمة ، وفي تسمير الجاهليين للحرب ليل نهار ، وغاراتهم الهاجمة التي ما حفلوا معها الموت ، ما لا يقل عن مثيله عند غيرهم من الأمم التي عاصرتهم أو تقدّمتهم في الزمن . . . ولن يكون للعرب ملحمة واحدة مقصورة على الحروب الجاهلية ، فإن تاريخهم الحربيّ الذي نبه إليهم الأمم المجاورة وأخافها منهم وبسط سلطانهم على القلوب ، قد بدأ منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، فكان للعرب قصة حرب تبدأ من غزوات الرسول ، ثم تنحدر إلى حروب الفتوح في ديار فارس ، وأرض الروم ، وسائر الأقطار التي بلغ إليها العرب بسيوفهم حتى تبلغ شتات شملهم وتوزع سلطانهم في أواخر العصور . »

الحماسة في الجاهلية

(١) دواعي الحماسة الجاهلية :

للشعر الحماسي في الجاهلية دواع كثيرة ، منها أن البدوي وليد الصحراء يعيش في أكنافها ويواجه مخاطرهما ، ويتقلب بين قسوة السماء وهيب الرضاء ، أمل عيشه في أنعام يضطرب في الأرض من أجلها ، ويتوقع الأمطار ليروى عطشها ، فيرتحل من مكان إلى مكان في مجاهل يرتعش كلؤها في سراب خداع ، حتى إذا زاحمه غريب على الماء والكأ هاجمه ؛ وإذا هنالك كره وفر ؛ وإذا هنالك جلال وصراع ، ودماء تسيل معها الأرواح ؛ وإذا هنالك طلب الثأر وإعداد العدة للانتقام ؛ وإذا هنالك تآلف وتحالف ، وتناد للحرب بين البطون والقبائل ؛ وإذا هنالك أخيراً صولات وجولات يتصادم فيها الأبطال ، وتتعانق فيها السيوف والنصال ، وتتعالى فيها أصوات الرجال وهمهمات الخيول والإبل ، وتنطلق ألسنة الشعراء مدوية ، معددة للمكارم والمفاخر .

ومن دواعي الشعر الحماسي أن البدوي شديد الحفاظ على الشرف والجار ، فإن تعدى عليهما أحد ، أوقد نار الحرب والقتال ، وأذكى بذلك القرائح ، ففاض الشعر في أسلوب ملحمي هدار .

وهكذا كان الداعي إلى الحماسة كل ما كان داعياً إلى الحرب ، وهكذا كانت كل حرب وكل غزاة ، وكل تعد وكل مناوأة ، سبباً من أسباب الفيض الملحمي الذي رافق تاريخ العرب في مختلف أطواره . وهكذا أخيراً كانت أيام العرب في الجاهلية محور شعرهم ، ومدار أقوالهم . ولتلك الأيام تاريخ طويل ، وهي ترجع إلى أيام العرب والفرس ، وأيام القحطانية فيما بينهم ، وأيام القحطانيين

والعدنانيين ، وأيام ربيعة فيما بينها ، وأيام ربيعة وتميم ، وأيام قيس فيما بينها ، وأيام قيس وكنانة ، وأيام قيس وتميم ، وأيام ضبة وغيرهم .

أما أيام العرب والفرس فأشهرها يوم ذى قار وهو لبكر على العجم ، وقد التقى جيش الأكاسرة بجيش العرب في بطحاء ذى قار ، وذوقار ماء لبكر قريب من الكوفة ؛ وكان جيش الفرس مؤلفاً من ثلاثة آلاف عربي ، ومن ألف من الأساورة على رأسهم الهامرز ، وألف آخر من الأساورة على رأسهم خنازير ، ومن عدد كبير من الحلفاء والموالين ؛ وكان جيش العرب مؤلفاً من بني عجل في الميمنة وعليهم حنظلة بن ثعلبة ، ومن بني شيبان في الميسرة وعليهم بكر بن يزيد ابن مسهر ، ومن أفناء بكر في القلب وعليهم هاني بن مسعود . وقد دارت الدائرة على الفرس ، وقد اتبعهم بكر يقتلونهم بقية يومهم وليلتهم ، حتى قضوا على من قضوا وشردوا من شردوا . ومن الأناشيد الخربية والأراجيز الحماسية التي تناسدها العرب في ذلك اليوم وحض بها بعضهم بعضاً على القتال ، ما قالته امرأة من عجل من بني شيبان :

إِنْ تَهْزِمُوا نَعَانِقُ وَنَفَرِشِ النَّمَارِقِ^(١)
أَوْ تَهْزِمُوا نِفَارِقُ فَرَاقَ غَيْرِ وَاِمَقُ

إلى غير ذلك من الشعر الذي ينطلق دفعاً دفعاً ، ويصور بلفظه وموسيقاه ، مواقف الشدة وحركات الهجوم ، وموضات الأسنة ، والتحام الأبطال بالأبطال ، وانفجارات الصدور والنفوس . وهذه المقاطع الشعرية أشبه شيء بمقاطع الإلياذة ، في وصف هجوم الطراودة والتحام القتال بينهم وبين الإغريق .

وأما أيام القحطانيين فيما بينهم فأشهرها يوم حليلة للحارث الأعرج بن

(١) النمارق ج نمرة وهي الوسادة الصغيرة أو الطنفسة فوق الرجل .

جبله ، ملك العرب بالشام ، على المنذر بن المنذر ماء السماء ، ملك العرب بالحيرة .
وأما أيام القحطانيين والعدنانيين فمن أشهرها يوم حجر لبنى أسد على حجر
والد امرئ القيس الشاعر المشهور ، وأخبار ذلك اليوم معروفة متداولة في كتب
الأدب ، لما للملك الضليل من أهمية في أدب الجاهلية .

وأما أيام ربيعة فيما بينهم فأشهرها حرب البسوس التي دارت بين بكر وتغلب
ابني وائل ، وقد دامت أربعين سنة . وإن في حرب البسوس من المواقف ، وإن
فيها من الشعر ما هو أشبه شيء بمواقف إلياذة هوميروس وشعرها . وحرب
البسوس — على حد قول سليمان البستاني في مقدمة الإلياذة — « حرب تناقل
العرب أخبارها وتناشدوا شعرها . على ممر القرون حتى أيامنا هذه ، وصاغوها
بقوالب شتى لا يصلح قالب منها لصوغ الملاحم التامة كالإلياذة . ومع هذا فإن
جميع ما قيل فيها من الكلام المنظوم أقرب نسبة إلى الشعر القصصي منه إلى
الموسيقى ، فكل قصيدة منها قطعة من ملحمة . ولكن تلك القطع غير ملتزمة
لفقدان اللحمة بينها ، فهي كالحجارة المنحوتة قد أحكمت صنعها ، وبقيت
ملقاة في أرضها غير مرصوفة بالبناء . ثم إذا نظرت إلى أشهر الرجال والنساء فيها ،
رأيتهم جميعهم شعراء ، فكليب يقول الشعر ومثله زوجته جلييلة ، وأخوه مهلهل .
وكذلك مرة شاعر ، وابنه جساس شاعر ، وكل ذي شأن في القصة من غريب
وقريب شاعر ، كالحارث بن عباد وجحدر بن ضبيعة » .

ومن الأناشيد الحربية والقصائد الملحمية التي قيلت في حرب البسوس قول
مرة مخاطباً ابنه جساس :

فإنَّ تلكُ قد جُنِيتَ علىَّ حرباً تغصُّ الشَّيخَ بالماءِ القراحِ
جمعتُ بها يديكَ على كليبٍ فلا وكيْلٌ ولا رثُ السُّلاحِ^(١)

ولكنني إلى العلات أجرى
ولمئي حين تشتجر العوالى
شديد البأس ليس بلذى عياء
سأل بس ثوبها وأذب عنها
فما يبقى لعزته ذليل
فإني قد طربت وهاج شوقى
وأجمل من حياة الدل موت
إلى الموت المحيط . مع الصباح^(١)
أعيد الرمح فى إثر الجراح^(٢)
ولكنني أبوء إلى الفلاح
بأطراف العوالى والصفاح^(٣)
فيمنعه من القدر المتاح
طراد الخيل عارضة الرماح
وبعض العار لا يحويه ماح

ومن ذلك أن الحارث بن عباد أرسل إلى المهلهل وقال : إن كنت قتلت بغيراً بكليب ، وانقطعت الحرب بينكم وبين إخوانكم . فقد طابت نفسى بذلك . فأرسل إليه المهلهل : إنما قتلته بشسع نعل كليب . فغضب الحارث ودعا بفرسه - وكانت تسمى النعامة - فجز ناصيتها وقلب ذنبها^(٤) ، ثم قال قصيدة منها :

كل شئ مصيره للزوال
وترى الناس ينظرون جميعاً
قل لأم الأغر تبكى بغيراً
لهف نفسي على بغير إذا ما
وتساقى الكماء سماً نقيعاً
غير ربى وصالح الأعمال
ليس فيهم لذلك بعض احتيال
ما آتى الماء من رؤوس الجبال
جالت الخيل يوم حرب عضال
وبدا البيض من قباب الحجال

(١) بنو العلات : بنو رجل واحد من أمهات شق .

(٢) تشتجر : تتداخل .

(٣) الصفاح : السيوف العراض .

(٤) قلب ذنبها : تنفه .

يا لَبَكْرٍ ! غَرَاءَ كَالْتَّمَنَالِ
نَمَلًا الْبَيْدَ مِنْ رُوَيْسِ الرِّجَالِ
حِينَ تَسْقَى الدَّمَ صَدُورَ الْعَوَالِ
بِـ عَجِيجِ الْجِمَالِ بِالْأَثْمَالِ
طـ. كَلِيبٍ تَزَاجِرُوا عَنْ ضَلَالِ
وَلِيٍّ بَحْرُهَا الْيَوْمَ صَالِ
فَنَآتَتْ تَغْلِبُ عَلَى اعْتِزَالِ
قَتَلُوهُ ظُلْمًا بِغَيْرِ قِتَالِ
إِنَّ قَتْلَ الْكَرِيمِ بِالشَّمْعِ غَالِ
قَدْ شَرِبْنَا بِكَاسِ مَوْتٍ زُلَالِ
مَا سَمِعْنَا بِمِثْلِهِ فِي الْعَوَالِ
لَقِيعَتْ حَرْبٍ وَائِلٍ عَنْ حِيَالِ (١)
لَيْسَ قَوْلِي يُرَادُّ لَكِنْ فَعَالِي
جَدُّ نَوْحِ النِّسَاءِ بِالْإِغْوَالِ
شَابَ رَأْسِي وَأُنْكِرْتَنِي الْعَوَالِ
لِلْأُسْرَى وَالْغُدُوِّ وَالْأَصَالِ
طَالَ لَيْلِي عَلَى اللَّيَالِي الطَّوَالِ
لَا عِتْنَاكَ الْأَبْطَالِ بِالْأَبْطَالِ

وَسَمِعْتُ كُلَّ حَرْقٍ - الْوَجْهَ - تَدْعُو
يَا بُجَيْرَ الْخَيْرَاتِ لَا صِلَحَ حَتَّى
وَتَقَرَّ الْعَيُونَ بَعْدَ بُكَاهَا
أَصْبَحَتْ وَائِلٌ تَعِجُ مِنَ الْحَرِّ
لَا بُجَيْرُ أَغْنَى قَتِيلًا وَلَا رَهْ
لَمْ أَكُنْ مِنْ جُنَاتِهَا - عَلِمَ اللَّهُ -
قَدْ تَجَنَّبْتُ وَائِلًا كَيْ يُفَيْقُوا
وَأَشَابُوا ذُؤَابَتِي بِبُجَيْرِ
قَتَلُوهُ بِشِمْعٍ نَعْلٍ كَلِيبِ
يَا بَنِي تَغْلِبِ خَذُوا الْحَذَرَ إِنَّا
يَا بَنِي تَغْلِبِ قَتَلْتُمْ قَتِيلًا
قَرَّبًا مَرْبُطَ النَّعَامَةِ مِنْنِي
قَرَّبًا مَرْبُطَ النَّعَامَةِ مِنْنِي
قَرَّبًا مَرْبُطَ النَّعَامَةِ مِنْنِي
قَرَّبًا مَرْبُطَ النَّعَامَةِ مِنْنِي
قَرَّبًا مَرْبُطَ النَّعَامَةِ مِنْنِي
قَرَّبًا مَرْبُطَ النَّعَامَةِ مِنْنِي
قَرَّبًا مَرْبُطَ النَّعَامَةِ مِنْنِي
قَرَّبًا مَرْبُطَ النَّعَامَةِ مِنْنِي

(١) عَنْ حِيَالٍ : أَيُّ أَنْ حَرْبٍ وَائِلٍ هَاجَتْ بَعْدَ سُكُونٍ .

قَرُّبًا مَرَبُطَ النِّعَامَةِ مَنِيَّ	وَأَعْدِلَا عَنْ مَقَالَةِ الْجُهَالِ
قَرُّبًا مَرَبُطَ النِّعَامَةِ مَنِيَّ	لَيْسَ قَلَابِي عَنِ الْقِتَالِ بَسَالِ
قَرُّبًا مَرَبُطَ النِّعَامَةِ مَنِيَّ	لَمَّا هَبَّ رِيحُ ذَيْلِ الشَّمَالِ
قَرُّبًا مَرَبُطَ النِّعَامَةِ مَنِيَّ	لِبُجَيْرِ مُفَكِّكَ الْأَغْلَالِ
قَرُّبًا مَرَبُطَ النِّعَامَةِ مَنِيَّ	لَكَرِيمٍ - مَتَوَّجٍ بِالْجَمَالِ
قَرُّبًا مَرَبُطَ النِّعَامَةِ مَنِيَّ	لَا نَبِيْعُ الرِّجَالِ بَيْعَ النَّعَالِ
قَرُّبًا مَرَبُطَ النِّعَامَةِ مَنِيَّ	لِبُجَيْرِ فَدَاهِ عَمِي وَخَالِي
قَرُّبَاهَا لِحَيِّ تَغْلِبَ شُوسًا	لَا عِتْنَاكِ الْكُمَاةَ يَوْمَ الْقِتَالِ (١)
قَرُّبَاهَا وَقَرُّبًا لِأَمْتِي دِرْ	عَا دِلَاصًا تَرْدُ حَدَّ النَّبَالِ (٢)
قَرُّبَاهَا بِمُرَهَفَاتٍ حِدَادِ	لِقِرَاعِ الْأَبْطَالِ يَوْمَ النِّزَالِ
سَائِلُوا كِنْدَةَ الْكَرَامِ وَبِكْرًا	وَأَسْأَلُوا مَذْحِجًا وَحَيَّ هِلَالِ
إِذْ أَتَوْنَا بَعْسُكِرٍ ذِي زُهَاءِ	مُكْفَهِّرٍ الْأَذَى شَدِيدِ الْمَصَالِ (٣)
فَقَرَيْنَاهُ حِينَ رَامَ قِرَانَا	كُلَّ مَاضِي الدِّبَابِ عَضْبِ الصُّقَالِ (٤)

وهكذا ترى أن مثل هذا الشعر ، وإن كان يادى النحل في بعض أجزائه ، هو شعر الحرب بكل ما في الكلمة من معنى ، هو شعر الثورة الدموية ، والغضب البديوية الكريمة ، هو الانتصار للشرف والإباء ، وهو الحلم في فورة البأس ،

(١) الشويس ج أشوس وهو الجريء .

(٢) الدرع الدلاص : اللينة الملساء .

(٣) ذى زهاء : ذى عدد كبير .

(٤) ذهاب السيف : حده .

والبأس في انتفاضة الحلم . وما أشبه هذا المشهد بمشهد « دون دياغ » في رواية السيد لكورنيل المسرحي الفرنسي الشهير ! وما أروع هذا البحر الشعري في مثل هذا الموقف ! وما أروع الألفاظ المتدافعة ، المكرورة في تدافعها الحربي ، الموقعة على نبضات القلب ، والتي تحمل في طياتها هدير الهاوية ، وجلبة الموت العميقة ! . . .

وأما أيام ربيعة وتميم فن أشهرها يوم ذى طلوح لبني يربوع من تميم على بكر من ربيعة .

وأشهر أيام قيس فيما بينها يوم « داحس والغبراء » وقد قيل فيها شعر كثير وهي حرب السباق بين عبس وذبيان ، وكانت الحرب بينهما سجالات وانتهت بصلح .

وقد اشتملت أيام المريقب ، وذى حساء ، واليعمرية ، والهباءة ، وفروق ، وقطن . وهذه الحرب روايات كثيرة في كتب الأدب منها أن الوردة العبسي زار يوماً حذيفة بن بدر اللبدياني ، فعرض عليه حذيفة خيله ، فقال : ما أرى فيها جواداً مبراً . فقال له حذيفة : فعند من الجواد المبر ؟ فقال : عند قيس ابن زهير . فقال له : هل لك أن تراهني عليه ؟ قال : نعم ! قد فعلت . فراهنه على ذكر من خيله وأثنى . ثم إن ورداً العبسي أتى قيس بن زهير وقال : إني قد راهنتُ على فرسين من خيلك ذكر وأثنى ، وأوجبت الرهان ، فقال : ما أبالي من راهنت غير حذيفة . فقال : ما راهنت غيره . فقال قيس ! إنك — ما علمت — لأنك .

ثم ركب قيس حتى أتى حذيفة فوقف عليه ، فقال له حذيفة : ما غدا بك ؟ فقال : غدوتُ لأوضحك الرهان . فقال حذيفة : بل غدوت لتغلقة (١) . فقال قيس : ما أردت ذلك . فأبى حذيفة إلا الرهان . فقال قيس : أحيرك

(١) أغلق الرهان : أوجبه .

ثلاث خلال ، فإن بدأت واخترت قبلي ، فلي خلتان ولك الأولى . وإن بدأت فاخترت قبلك فلك خلتان ولي الأولى . قال حذيفة : فابدأ . قال قيس : الغاية من مئة غلوة^(١) . قال حذيفة : فالمضمار^(٢) أربعون لياة ، والمجرى من ذات الإصا^(٣)د .

ففعلا ووضعوا السبق على يدي أحد بني ثعلبة بن مسعد . ثم ضمروا الخيل ، فلما فرغوا استقبل الذي ذرع الغاية بينهما من ذات الإصا^(٣)د . فأنهى الذرع إلى مكان ليس له اسم . فقادوا الخيل إلى الغاية وجعلوا السابق الذي يرد ذات الإصا^(٣)د ، وأجرى قيس داحساً والغبراء ، وحذيفة الخطار والحنفاء . وملأوا البركة ماء ، وجعلوا السابق أول الخيل يكرع فيها . وأقام حذيفة رجلاً من بني أسد — وبنو أسد أحلاف ذبيان — في الطريق ، وأمره أن يلقى داحساً في الطريق ، فإن جاء سابقاً رد وجهه عن الغاية . فلما أرسلت الخيل سبقها داحس سبقاً بيناً والناس ينظرون ، فلما هبط داحس في الوادي عارضه الأسدى فاطم وجهه فالتقاء في الماء ، فكاد يغرق هو وراكبه ولم يخرج إلا وقد فاتته الخيل . وأما راكب الغبراء فإنه خالف طريق داحس لما رآه قد أبطأ . ثم عاد إلى الطريق ، واجتمع مع فرسي حذيفة ، ثم سقطت الحنفاء ، وبقى الخطار والغبراء . ثم إن الغبراء جاءت سابقة ، وتبعها الخطار ، ثم الحنفاء ، ثم جاء داحس بعد ذلك والغلام يسير به على رسله ، وأخبر الغلام قيساً بما صنع بفرسه . فطالب قيس بالسبق — وكان عشرين من الإبل — فأبت بنو فزارة أن يعطوهم شيئاً . فقالت

(١) الغلوة : الرمية بالنشابة .

(٢) المضمار : وقت للأيام التي تضر فيها الخيل للسباق أو للركض أو العدو ؛ وتضميرها أن تشد عليها سروجها ، وتجلل بالأجلة حتى تمرق تحتها فيذهب رهلها ، ويشد لحمها ، ويحمل عليها غلمان يخفاف يحرونها ، لا يمنفون بها ، فإذا فعل بها ذلك أمن عليها البهر الشديد عند حضرها ، ولم يقطعها الشد .

(٣) ذات الأصا^(٣)د : فقيرة في حجر يجتمع فيها الماء ، وهي في ديار بني عبس .

بنو عيس : أعطونا بعض سَبَقنا . فَأَبَوْا . فَقَالُوا : «أَعْطَوْنَا جَزْوَراً نَنْحَرُهَا وَنَطْعُمُهَا أَهْلُ الْمَاءِ ، فَإِنَّا نَكْرَهُ الْقَالَةَ فِي الْعَرَبِ» . فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ فِزَارَةَ : «مِائَةُ جَزْوَراً وَجَزْوَراً وَاحِدةً سِوَا ، وَاللَّهِ مَا كُنَّا لَنَقْرَءَ لَكُمْ بِالسِّبْقِ عَلَيْنَا ، وَلَمْ نُسَبِّقْ» . فَكَانَ ذَلِكَ سَبَبَ دِمَاءٍ فِيهَا بَيْنَ الْقَبِيلَتَيْنِ ، ثُمَّ سَبَبَ حَرْبِ ضُرُوسِ أُبُلَى فِيهَا عَثَرَةُ الْعَبْسِيِّ «بِلَاءٌ حَسَنٌ» ، وَقَدْ انْتَهَتْ بِصُلْحٍ قَامَ عَلَى يَدَيْ الْحَارِثِ بْنِ عَوْفٍ وَهَرَمِ ابْنِ سَنَانٍ . وَقَدْ مَنَحَهُمَا زَهِيرُ بْنُ أَبِي سَلَمَى فِي مَعْلَقَتِهِ الَّتِي أَتَى فِيهَا عَلَى ذِكْرِ تِلْكَ الْحَرْبِ وَوِيْلَاتِهَا (١) .

وَأَمَّا أَيَّامُ قَيْسٍ وَكَثَانَةِ فَرْنَ أَشْهَرُهَا يَوْمُ الْكَدِيدِ لِبْنِي سَلِيمِ (بَطْنٌ مِنْ فَيْسِ عَيْلَانَ) عَلَى كَثَانَةِ . وَالْكَدِيدُ مَوْضِعٌ عَلَى اثْنَيْنِ وَأَرْبَعِينَ مَيْلًا مِنْ مَكَّةَ . وَمِنْ أَبْطَالِ ذَلِكَ الْيَوْمِ الشَّاعِرُ الْمَشْهُورُ دَرِيدُ بْنُ الصَّمَةِ . وَأَمَّا أَيَّامُ قَيْسٍ وَتَمِيمٍ فَرْنَ أَشْهَرُهَا يَوْمُ رَحْرَحَانَ لِعَامِرٍ عَلَى تَمِيمٍ ، وَرَحْرَحَانَ اسْمُ جَبَلٍ قَرِيبٍ مِنْ عَكَاظَ ، ثُمَّ يَوْمُ شَعْبِ جَبَلَةَ بِنَجْدٍ لِعَامِرٍ عَلَى ذُبْيَانَ وَتَمِيمٍ . وَقَدْ قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ مَعْمَرُ ابْنِ الْمُثَنَّى : «يَوْمُ جَبَلَةَ أَكْظَمَ أَيَّامُ الْعَرَبِ» وَذَلِكَ لَمَّا اتَّخَذَ فِي هَذَا الْيَوْمِ مِنَ الْحَنْكَةِ وَالْحَكْمَةِ ، وَسَدِيدِ الرَّأْيِ وَالْحِيلَةِ وَحَسَنِ التَّنْفِيزِ . وَقَدْ وَصَفَ الْمَعْقُرُ الْبَارِقُ - وَكَانَ قَدْ شَهِدَ الْوَقِيعَةَ - ذَلِكَ الْيَوْمَ الْمَشْهُودَ ، وَمَا أَتَى بِهِ الْأَبْطَالُ مِنْ جَلِيلِ الْأَعْمَالِ ، فِي أَبْيَاتِ مِنْهَا :

ضَرَبْنَا جَمِيلَ الْبَيْضِ فِي غَمْرِ لَجَّةٍ	فَلَمْ يَسْجُ فِي النَّاجِينَ مِنْهُمْ مُفَاخِرُ
هَوَى زَهْدِمٌ تَحْتَ الْعِجَاجِ لِعَامِرٍ	كَمَا أَنْقَضَ بَارِزٌ أَقْتَمَ الرِّيشِ كَاسِرُ
يُفَرِّجُ عَنَّا كُلَّ ثَغْرِ نَخَافِهِ	مُشِيحٌ كَسِرَ حَانَ الْقَصِيمَةِ ضَامِرُ
وَكُلَّ طَمْوُوحٍ فِي الْعِنانِ كَأَنَّهَا	إِذَا اغْتَمَسَتْ فِي الْمَاءِ فَتَحَا نَمَطِ طَائِرُ

تلك أيام العرب ، وقد كانت من أشد دواعي الشعر الحماسي ، بل كانت ينبوع الملحمة الجاهلية الكبرى ، ومستوحى الفخر العربي في قديم عصوره . وقد قامت فيها النساء إلى جنب الرجال يشاركنهم أعمال بطولتهم ، ويقفن في مؤخرة الجيوش يصفقن بالدفوف ، وينشدن الأهازيج ، وينظمن أحياناً الشعر في وصف المعارك ، واشتهر منهن كثيرات من مثل « الهيفاء القضاعية » القائلة :

الخيْلُ تَعْلَمُ يَوْمَ الرُّوْعِ إِنَّ هُزِمَتْ أَنَّ ابْنَ عَمْرِو لَدَى الْهَيْجَاءِ يَحْمِيهَا

(ب) موضوعات الحماسة الجاهلية :

دار الشعر الحماسي في الجاهلية حول وصف المعارك ، ووصف أعمال البطولة ، ثم وصف الخيول والإبل ، وأدوات الحرب وما إلى ذلك . وقد برع الجاهليون في وصف المعارك وتصويرها حية نابضة مملوءة بالهول ، كما برعوا في وصف أدواتها . فالليادين فسيحة الأرجاء ، وأحياء العرب في لغط وضوضاء ، يقوم فيها المنادون ينادون إلى الحرب ، ويدعون إلى القتال ، لأن الشرف قد ديس ، أو لأن الدم المهرق يطلب الثأر ، أو لأن المرامي قد اغتصبت ، أو لأن المواشي قد سبقت ، أو لأن فرس فلان قد سبقت فرس بعض أبناء القبيلة ، أو لأسباب أخرى ألحقت للقبيلة عاراً ، ونشرت في الحى ذلاً وصغاراً . يا للعار ! يا لبني فلان ! الحرب ! الحرب ! ... وها هي ذى القبيلة كلها في غضب وثورة ، فالنساء في زغردة ، والأطفال في دمدمة ، والرجال في هممة ، والصدور في انفجار ، والخيول في صهيل ، تضرب الأرض بالخوافر ، وترفع الرؤوس في عنفوان ، والإبل في هدير وعجيج ، والهوارج قباب تلو قباب ، والحسان فوق الهوارج بدور ، وأناشيد فخروعة قومية ، والفرسان على الصهوات نسور وعقبان ، والهندوانية بتارة تحمل في سفارها الموت والدمار ، والعوالى غابات ممتدة فوق الرؤوس ، تتلوى في شغف إلى امتصاص الأرواح ، والآمال فوق

الرماح أعلام خفاقة . القبيلة جماهير جماهير ، والأحلاف جماهير جماهير ،
والمقاتلة جماهير جماهير ، والهول والموت جماهير جماهير ، يبدو رئيس القوم على
فرس أنحف من النسيم ، فيذهب ويحيى ، ويفقد ويستعرض ، ثم ينطلق إلى
ساحة الوغى ، وإذا الفرسان وراءه كتائب كتائب ، وإذا صدى الخوافر ،
وصليل الأسلحة ، وإذا صفعات الأخفاف زمزمت تشق الغبار وتملأ الأجواء ،
يلتقى الجيشان فيتصاولان ويتجاولان في كر وفر ، وإذا الرماح في الصدور
والنحور ، والسيوف في الأعناق والرؤوس ، والدماء تسيل على الرمال صباغاً
قرمزيّاً ، وتتناثر على صدور الخيول فتحممهم ، وعلى وجوه الأبطال فتزيدهم
شراسة وهياجاً ، وإذا السماء اربداد وقساطل ، تشقها الارتجازات والزغردات
شقاً . ثم ينجلي الموقف عن عدو مهزوم ، وعن شرف مصون ، فيعود رجال
الحرب زرافات زرافات ، وإذا القبيلة وأحلافها في عيد ، ثم في تأهب لعراك
جديد .

وهكذا كان الجاهليون يصفون الأبطال بالشدة والشجاعة واللباس ،
ويصفونهم بقوة الساعد ، وقوة الشكيمة ، والعناد في الصدام ، ورجاحة العقل في
الكر والفر ، والحيلة في مواقف الشدة ، والعفة في تقاسم الغنائم ، والبديهة في
المآزق الضيقة ، والكرم في كل حال . وكانوا يصفون الخيول بالسرعة والحفة
وشدة الانقضاض ، ويشبهونها بالعقبان والظباء والنعام والرياح ، ويستحسنون فيها
الضمور ، والملاسة ، ومتانة الساقين ، وقوة الجنين ، وطول الذنب ، واستقامة
العسيب وما إلى ذلك مما يرجع إلى النشاط والسرعة . وكانوا يصفون عدة الحرب
بما كان يصفها به غيرهم من الشعوب القديمة ، فيذكرون للسيف بلاءه في حز
الرقاب ، وقصم الظهر ، وقطع الدروع ، وذكروا للرمح التماع سنانه ، وأنه أزرق
كأنياب الغول ، يحترق الصدور ويدى النحور .

(٢) مميزات الحماسة الجاهلية :

قال الدكتور زكى المحاسنى : « طول مشاهدة العرب للمعارك أكسب شعراءهم دقة وصفها وحسن تصويرها ، وهل كانت المعارك فى حياة العرب إلا مناط عزهم ومدار فخرهم ، يردونها ولا وجه أمامهم سوى الموت . لقد رخص كل شىء لديهم من حطام الدنيا ، ولم يكن من حطامها بين أيديهم سوى قليل . وغلا لديهم كل ما رافق المروءة والشهامة ، فكانت شجاعتهم أدعى لهم إلى الحرب . على أنهم لم يطرحوا سداد الرأى ، وإنما كانوا فى حروبهم يقلبون أوجهه ليصلوا إلى أيها الأسد ، ولم يكن وصف شعرائهم للمعارك وصفاً مطولاً يأخذ بالكلام من أوائله حتى ينتهى إلى أواخره كما تدعو الحوادث ، فليس لديهم قصائد تمسك بأوائلها حتى تبلغ نهايتها ، فترك صورة معركة منذ بداية الوقعة إلى ختامها ، وإنما هى فترات شعر فى لمحات وصف مقتضبة متجزئة ، يتبين فيها الروح العربى البىانى الذى انطوى ، منذ كان ، على الاختصار فى سرد الصور ، أو الزهد فى التقصى ، ونحن إذا وجدنا منها مطولات فى موضوع الحرب ووصف المعارك ، فإننا لا نجد فيها وحدة متناسقة فى الموصوفات المتشابهة . ولقد يتاح لنا بعد عصر الجاهلية أن نلم بقصائد كاملة ، يصف شعراؤها المعارك التى شهدوها أوقيلت لهم ، ولكنها قليلة ، وسبب ذلك حب الانطلاق من قيد المعانى والانقلات من استقصائها ، لضيق القافية الراتبة واتساع المعانى المتوالدة ، إذ كان يؤثر الشاعر العربى الخروج من موضوع إلى آخر ، ومن صورة لم يكمل وصفها إلى غيرها من الصور . . . ولقد أحاط شعراء الجاهلية بأوصاف السلاح وعدة الحرب بما لم تحط به أمة من أمة الحرب . فحذقوا الكلام عليها ، وأجالوا البيان فى وصف آلاتها ، وأكثروا من العناية بتصويرها وتصويرها ، حتى ألما بدقائقها وأشكالها . وكان هذا الشعر الواصف للعدة والسلاح شغل شعراء العرب الشاغل ، ودأبهم فى

استنباط التشابه ، وتوليد أفانينها واستقصاء روائعها ، حتى صار ما قالوه في أوصاف السلاح وعدة القتال تراثاً أدبياً في شعرنا العربي نكاثر فيه آداب الشعوب . . .
ولنا إذا تبعنا ألفاظ لغة العرب وتقصينا جملها وتراكيبها ، واستقرأنا تعابيرها في المجاز والاستعارة ، وسائر فنون البلاغة — كما عرفت على رسلها في الجاهلية قبل أن تستولى عليها الكلفة في تتابع العصور الإسلامية — وجدنا أن لغة العرب لغة حرب وضرب ، وطعان ونزال ، في أروع بيانها وأبرع تشابيهها^(١) .

(د) نماذج من شعراء الحماسة الجاهلية :

إن من استقرى الشعر الجاهلي وجد أن للحماسة فيه محلاً واسعاً جداً ، وشعر أن الحماسة ملء الأفواه والأسماع ، وذلك أن الشعراء لذلك العهد كانوا ينهضون ، كسائر الناس ، بعبء القتال ، وقد عدّوه جزءاً من حياتهم ، وبات من العار لديهم أن يموت للمرء حتف أنفه ، كما بات من غداهم اليوى أن يتحدثوا عن القتال ، وأن يصفوا المعارك ، وأن يتفاخروا بالأيام . ولأنه ليطول بنا المجال لو أردنا ذكر أسماء شعراء الحماسة ، فكيف بنا لو أردنا الكلام على شعرهم ، ولذلك سنقتصر على بعضهم ، وفي ذكر القليل غنى عن التفصيل والتطوير.

الفند الزماني :

كان أحد فرسان ربيعة المشهورين ، وقد شهد حرب بكر وتغلب وله من العمر نحو مائة سنة . وإليك أبياتاً من قصيدة قالها في حرب البسوس . وذلك أن بكر بن وائل بعثوا إلى بني حنيفة في حرب البسوس يستنصرونهم ، فأمدوهم به وبقومه بني زمان وعدادهم في بني حنيفة ، فقال :

(١) شعر الحرب في أدب العرب ، ص ٢٧ ، ٣٢ .

صَفَحْنَا عَنْ بَنِي ذُهْلٍ وَقُلْنَا الْقَوْمَ إِخْوَانُ
عَسَى الْأَيَّامُ أَنْ يَرْجِعَ نَ قَوْمًا كَالَّذِي كَانُوا
فَلَمَّا صَرَّحَ الشَّرُّ فَأَمَسَى وَهُوَ عَرِيَانُ
وَلَمْ يَبْقَ سِوَى الْعُدِّ وَإِنْ دَنَاهُمْ كَمَا دَانُوا
مَشِينَا مِثْلِيَّةَ اللَّيْلِ مِثْ غَدَا ، وَاللَّيْثُ غَضِبَانُ
بِضَرْبٍ فِيهِ تَوْهِينُ وَتَخْضِيعُ وَإِفْرَانُ
وَطَعْنُ كَفَمِ الزُّقِّ غَدَا وَالزُّقُّ مَلَانُ
وَبَغْضُ الْجَدَمِ عِنْدَ الْجَهْلِ لِلذَّلَّةِ إِذْعَانُ
وَفِي الشَّرِّ نَجَاةٌ حِينَ لَا يُنْحِيكَ إِحْسَانُ

هذا شيخ جاهلي ، قد تقلبت عليه الأيام مجلواها ومرها ، ودارت عليه دوائر الزمن ، وجال في الحروب جولات وجولات ، وكان السيف لساعده نصيراً ، وكان الرمح لعزمه ظهيراً ، وقد دعى للحرب وهو في شيخوخته فلبى الدعوة لأن الشر قد صرح ، ومشى في قومه مشية الليث الجائع الغضبان ، ونظم في ذلك شعراً حربياً يحمل في وزنه وقافته صدى الهجوم الصاعق ، ويحمل في ألفاظه حكمة الشيخوخة ، وصرامة البطولة ، وعنفوان الجاهلية .

الحصين المري :

والحصين بن الحمام المري شاعر جاهلي وفارس مذكور يعد من أوفياء العرب . وما يروى من أخباره أنه كان ناس من بني قضاعة يقال لهم بنو سلامان ابن سعد حلفاء لبني صرمة بن مرة ونزولاً فيهم ، وكان بنو حميس بن عامر حلفاء لبني سهم بن مرة ، وكان في بني صرمة يهودى من أهل تيماء يقال له جهينة ، وكان في بني سهم يهودى من أهل وادي القرى يتاجر في الخمر ، وكان بنو جوشن

أهل بيت من عبد الله بن غطفان جيراناً لبني صرمة ، وكان يُتَشَامِهم بهم ، ففقدوا منهم رجلاً ، يُقَالُ له حُصَيْن كان يقطع الطريق وحده ، فكانت أخته وإخوته يسألون الناس عنه وينشدونه في كل مجلس وموسم ! فجلس ذات يوم أخ لذلك المفقود في بيت ذلك اليهودي المجاور لبني سهم يبتاع خمرًا ، إذ مرت أخت المفقود تسأل عن أخيها ، فقال لليهودي : نشدتك الله ودينك هل تعلم لأخي علماً ؟ فقال : لا وديني لا أعلم . فلما مضى تمثل ذلك اليهودي :
لعمرك ما ضللت ضلال ابن جوشن حصاة بليل ألقيت وسط جندل

وأراد أن الحصاة يمكن أن ترجع وأن هذا لا يرجع أبداً . فلما سمع أخوه ذلك تركه حتى إذا أمسى الليل قتله . فأتى الحصين وقيل له إن جارك اليهودي قتله أبو جوشن جار بني صرمة . فقال : اقتلوا اليهودي الذي في جوار بني صرمة فأتوه فقتلوه . فوقع بذلك الشر بينهم وقاتلهم الحصين وهزمهم ، وكف يده بعد ما أكثر فيهم القتل . وأبى بنو سلامان أن يكفوا عن القوم حتى أخذوا فيهم وأجلبت بنو ذبيان وبنو محارب بن خصيفة على بني سهم مع بني صرمة . فأقاموا على الحرب فظفر بهم الحصين وهزمهم وقتل منهم ، وقال هذه الأبيات :

فَقُلْتُ لَهُمْ يَا آلَ ذَبْيَانَ مَا لَكُمْ تَفَاقَدْتُمْ ، لَا تُقَدِّمُونَ مُقَدِّمًا (١)
مَوَالِيَكُمْ مَوَالِي الْوِلَادَةِ مِنْهُمْ وَمَوَالِي الْيَمِينِ حَابِسٌ قَدْ تُقْسِمُ (٢)
وَقُلْتُ تَبَيَّنْ هَلْ تَرَى بَيْنَ خَارِجٍ وَنَهْيٍ الْأَكْفِ صَارِخًا غَيْرَ أَعْجَمًا (٣)

(١) تفاقمت : جملة اعتراضية ، وهي دعاء عليهم بأن يفقد بعضهم بعضاً . مقدماً : تقدماً أي إقداماً .

(٢) المولى يطلق على معان كثيرة ، وقسم الشاعر في هذا البيت الموالى إلى بني حم وهم نسائهم مولى الولادة ، وإلى حليف وهو من انضم إليك فز بعزك وهو الذي سماه مولى اليمين لأنه يقسم له عند الانضمام . . يقول : تداركوا الذين يتسبون بولاء النسب وولاء الحلف فكل منهم ذو حبس على الشر متقمم الحال مغار عليه .

(٣) خارج : ماء لبني عبس . نهى الأكف : موضع . الصارخ : المستغيث . الأعجم : الذي لا يفصح .

مِنَ الصُّبْحِ حَتَّى تَغْرُبَ الشَّمْسُ لَا تَرَى
عَلَيْهِنَّ فِتْيَانٌ كَسَاهُمْ مُحَرَّقٌ
صَفَائِحَ بُصْرَى أَخْلَصَتْهَا قِيُونُهَا
وَلَمَّا رَأَيْنَا الصَّبْرَ قَدْ حِيلَ دُونَهُ
صَبْرُنَا وَكَانَ الصَّبْرَ مِنَّا سَجِيَّةً
تُفْلِقُ هَاماً مِنْ رَجَالٍ أَعَزَّةٍ
وَلَمَّا رَأَيْتُ الْوَدَّ لَيْسَ بِنَافِعِي
فَلَسْتُ بِمُبْتَاعِ الْحَيَاةِ بَدَلَةٍ
مِنَ الْخَيْلِ إِلَّا خَارِجِيًّا مُسَنَّمًا^(١)
وَكَانَ إِذَا يَكْسُو أَجَادَ وَأَكْرَمًا^(٢)
وَمَطَرِدًا مِنْ نَسْجِ دَاوُدَ مُبْهِمًا^(٣)
وَإِنْ كَانَ يَوْمًا ذَا كَوَاكِبَ مُظْلِمًا^(٤)
بِأَسْيَافِنَا يَقْطَعْنَ كَفًّا وَمَعْصَمًا
عَلَيْنَا وَهُمْ كَانُوا أَعْقًى وَأَظْلَمًا^(٥)
عَمَدْتُ إِلَى الْأَمْرِ الَّذِي كَانَ أَحْزَمًا
وَلَا مُرْتَقٍ مِنْ خَشْيَةِ الْمَوْتِ سُلَمًا

الحصين بن الحمام المرقى يحارب أيضاً لأن داعي الشرف دعاه إلى ذلك ،
وعنده المينة الحسنة على ما يتعقبها من الأحادثة الجميلة آثر من العيشة الدميمة
على ما يخالطها من الدل . إنه يحارب بحزم وجلد ، وهو يصف حربه بإيجاز
شديد ، وإذا الحرب عنده خيل مسومة كثيرة العدد ، عليها فتيان بدروع
دقيقة الصنعة وسيوف بتارة ، وتفليق لهامات الأبطال ، وإذا شعره حكاية حال ،

(١) الخارجي من الخيل هو الذي برز وأبواه ليسا كذلك . المسوم : المعلم بعلامة يعرف بها
يشير بهذا البيت إلى كثرة الخيل والرجال .

(٢) محرق : أحد ملوك لم يحرق قوماً فسمى محرقاً .

(٣) الصفائح : السيوف ، وقد نصب على أنها مفعول « كسا » في البيت السابق . بصرى :
موضع بالشام تباع فيه السيوف . القيون : الحدادون . المطرد : الدرع المتتابعة النسيج . يقول :
كساهم محرق سيوف بصرى التي أجيد صنعها وكساهم أيضاً دروعاً متتابعة النسيج غفيات الحلقات
لدقة صنعها .

(٤) وإن كان يوماً : أي وإن كان ذلك اليوم يوماً . يقال : أراه الكواكب نهراً ،
لاحتجاب الشمس فيه من الغبار أو لشدّة الأمر وعظم الخطب .

(٥) يقول : نشق رؤوس رجال أعزة علينا ولكن الذي حملنا على قتالهم إنما هو ظلمهم وعقوقهم .

وإبداء لآرائه في الحياة والموت ! وإذا هو في كل ذلك شاعر بدويّ مستميت
في سبيل الشرف والإباء .

المهلهل :

هو عدى بن ربيعة التغلبي ، خال امرئ القيس الشاعر المشهور ، وهو بطل
من أبطال حرب البسوس ، وقد أسر في نهاية الأمر ومات في أسره . وأكثر شعره
في رثاء أخيه كليب وفي تواعد الأعداء وما إلى ذلك . وأدبه هو أدب العاطفة
التي تغالى في وصف الأخ ووصف الهول ، وتعتمد التكرار والتهديد الطفولي
وطلب المستحيل في غير منطق ولا تحليل ، وذلك كله تارة في جو ملحمي من
الشعر الحربي ، الذي تتقاذف ألفاظه ، ويتعالى دوى حوافر أفراسه ، وطوراً
في أجواء من الميوعة هي موسيقى خمر ونساء . وأدب المهلهل هو أدب حرب
وحماسة ، وأدب عاطفة وتكرار ، وأدب سهل الأسلوب وسهل التعبير . والمهلهل
هو بطل في الحرب وفي اللهو ، وقد نسجت حواليه أسطورة الزير ، فلا عجب
أن درس في شعره أبيات كثيرة ليست له ، قد تكون سبباً من أسباب الضعف
والهلهلة والإسفاف في أدبه .

الحماسة في المعلقة :

إن من يقرأ المعلقة يلمح أن فيها ناحية ملحمة كما في سائر الشعر
الجاهلي ، وإننا سنجتريّ بذكر ثلاث من تلك المعلقة ، وفيها شاهد كاف
على ما نقول وما نحن في صدد : معلقة عمرو بن كلثوم ، والحارث بن
حلزة ، وعنترة بن شداد .

عمرو بن كلثوم هو أبو الأسود بن مالك التغلبي ، وأمه ليلى بنت المهلهل .
نشأ عزيز الجانب أنوفاً معجباً بنفسه أشد الإعجاب ، وساد قومه وهو ابن

خمس عشرة سنة ، وقاد الجيوش مظفراً . ولما قامت المشاحة بين البكر وتغلب واحتكموا إلى عمرو بن هند ، وقف عمرو بن كلثوم مدافعاً عن قومه ، وما إن فرغ من إنشاد قصيدته حتى ظهر له أن هوى الملك مع بكر ، فانصرف وفي نفسه ما فيها . ثم خطر في نفس بن هند أن يكسر من أنفة تغلب بإذلال سيدها عمرو بن كلثوم ، فدعاه هو وأمه ليلى ، وأغرى هنداً أمه أن تستخدمها في قضاء أمر . فصاحت ليلى : « وإذلاه ! يا لتغلب ! » فسمعها عمرو بن كلثوم . فثار به الغضب وقتل ابن هند في مجلسه ، ثم رحل تَوّاً إلى بلاده بالجزيرة الفراتية ، وأضاف إلى معلقته قسماً بين فيه سخطه على عمرو بن هند .

وإننا لشعر ، ونحن نقرأ معلقة ابن كلثوم ، أننا أمام مشهد يشبه مشهد أخيل يخاطب هكتور في لهجة الناقم ، في لهجة الشجاع الباسل الذي يتدفق تدفق السيل الجارف ، في لهجة من تملأ من المحبة وقام في قومه مقام السيد ، وحمل في نفسه ماضياً زاخراً بالعزة ، حافلاً بالقوة ، وحاضراً تتعاقب فيه السيوف والرماح وتجرى فيه الدماء سيولاً ، ومستقبلاً يقوم على جماجم الأعداء صروحاً تظلل الأبناء إلى أبد الدهر .

وإننا نلمس في هذه المعلقة أن أدب ابن كلثوم هو أدب الثورة والجماع ، أدب الانفعال الشديد الذي لا يحد منه العقل ، فقصيدته اندفاع على غير هدى ، وعلى غير استقامة في التفكير والتنسيق ، وأفكاره متدافعة ، متقاذفة ، مكورة ، تسبح في عالم من الخيال الجامح الذي يغلو ويفرق في الغلو .

أما الحارث بن حلزة يشكرى البكرى فهو الذى وقف في وجه عمرو بن كلثوم يوم الاحتكام إلى عمرو بن هند ، ودافع عن قومه بقصيدته المعدودة من المعلقات ، والتي وصف فيها الحرب ومزج في الوصف صهيل الخيل بصلصلة الصوارم ، بعجيج الأبطال ، بأصوات الماشية ، بثورة الطبيعة كلها . وشعر ابن حلزة خطابي ملحمي ، يرمى إلى الإقناع ، ويعتمد سرد القصص البطولي ، وذلك

في جو من الموسيقى الشديدة الوقع ، التي تدوى في هدوء وانطلاق ، وتماشي العقل والشعور والخيال ، فتريدها قوة وعمق تأثير .

وعنتر بن شداد : هو عنتر بن شداد العبسي أحد فرسان العرب وأغربتها وشعراؤها المشهورين .

ولما كانت حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان كان عنتر قائد الكتائب وخائض الغمرات ، وكان البطل الذي تناولت الأسطورة أعماله فجعلت منه المثال الأعلى في الفروسية والبطولة . وقد حفر عنتر على أعمال البطولة ، فوق ما حفزه ، رغبته في استرضاء عبلة ، ومحوسواد الجلد ببيض الفعال . وشاخ عنتر بن شداد وهو أبداً رجل الخيل والسيوف والرماح ، وقد مات قتلاً نحو سنة ٦١٥ للميلاد .

[وَرَدَ في كتاب « الشعر والشعراء » لابن قتيبة ما يلي : « كان عنتر من أشد أهل زمانه وأجودهم بما ملكت يده . وكان لا يقول من الشعر إلا البيتين والثلاثة » ، حتى سابه رجل من بني عبس ، فذكر سواده وسواد أمه وإخوته ، وغيره بذلك وبأنه لا يقول الشعر . فقال له عنتر : والله إن الناس ليرافقون بالطعمة فما حضرت مرفد الناس أنت ولا أبوك ولا جدك قط . وإن الناس ليذعنون في الغارات فيعرفون بتسويمهم ، فما رأيناك في خيل مغيرة في أوائل الناس قط . وإن اللبس ليكون بيننا ، فما حضرت أنت ولا أبوك ولا جدك خطة فيصل ، وإنما أنت فقع نبت بقرقر وإنما لأحضر البأس ، وأوافي المغنم ، وأعف عن المسألة ، وأجود بما ملكت يدي ، وأفضل الخطة الصمعاء ، وأما الشعر فستعلم . وأنشد معلقته التي نورد طرفاً منها :

هَلْ غَادَرَ الشُّعْرَاءُ مِنْ مُتَرَدِّمٍ ؟ أَمْ هَلْ عَرَفْتَ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُمٍ ؟

وَعِمِّي صَبَاحاً دَارَ عِبْلَةٍ وَأَسْلَمِي
أَقْوَى وَأَفْقَرَ بَعْدَ أُمِّ الْهَيْثَمِ
عَسِيراً عَلَى صِلَابِكَ ابْنَةُ مَحْرَمٍ
زَعَمًا لِعَمْرُؤِ أَبِيكَ لَيْسَ بِمَزْعَمٍ
مِنِّي - بِمَنْزِلَةِ الْمُحِبِّ الْمُكْرَمِ
بِعُنَيْزَتَيْنِ وَأَهْلُنَا بِالْقَيْلَمِ
زُمْتُ رِكَابُكُمْ بِلَيْلٍ مُظْلِمٍ
وَسَطَ الدَّيْلِيزُ تَسْفُ حَبَّ الْخَمْنِ
سُودَ كَخَافِيَةِ الْغَرَابِ الْأَسْحَمِ
عَذَبٍ مُقْبِلُهُ لَلدَّيْدِ الْمَطْعَمِ
سَبَقْتُ عَوَارِضَهَا إِلَيْكَ مِنَ الْقَمِ
غَيْثٌ قَلِيلُ الدَّمَنِ لَيْسَ بِمُعْلَمِ
فَقَرَكُنْ كُلَّ قَرَارَةٍ كَالدَّرْهَمِ
يَجْرِي عَلَيْهَا الْمَاءُ لَمْ يَتَصَرَّمِ
غَرْدًا كَفَعْلِ الشَّرَابِ الْمُثَرَّمِ
قَذَحَ الْمُكَبِّ عَلَى الزَّنَادِ الْأَجْدَمِ
وَأَبَيْتُ فَوْقَ سَرَاةٍ أَذْهَمَ مُلْجَمِ
نَهْدٍ مَرَاكِلُهُ نَبِيلِ الْمَحْزَمِ
لُعِنْتُ بِمَحْجُورِ الشَّرَابِ مُصَرَّمِ

يَا دَارَ عِبْلَةٍ بِالْجَوَاءِ تَكَلَّمِي
حَيِّبَتْ مِنْ طَلَلٍ تَقَادَمَ عَهْدُهُ
حَلَّتْ بِأَرْضِ الزَّائِرِينَ فَأَصْبَحَتْ
عُلُقْتُهَا عَرْضاً وَأَقْتُلُ قَوْمَهَا
وَلَقَدْ نَزَلْتُ - فَلَا تَطْنِي غَيْرَهُ
كَيْفَ الْمَزَارُ وَقَدْ تَرَبَّعَ أَهْلُهَا
إِنْ كُنْتُ أَرْمَعُ الْفِرَاقَ فَلَيْسَ
مَا رَاعَنِي إِلَّا حُبُولَةُ أَهْلِهَا
فِيهَا اثْنَتَانِ وَأَرْبَعُونَ حُلُوبَةً
إِذْ تَسْتَبِيكَ بِدَى غُرُوبٍ وَاضِحٍ
وَكَانَ فَارَةً تَاجِرٍ بِقَسِيمَةٍ
أَوْ رَوْضَةً أَنْفًا تَضْمَنُ نَبْتَهَا
جَادَتْ عَلَيْهِ كُلُّ بِكْرٍ حُرَّةٍ
سَحًا وَتَسْكَابًا فَكُلُّ عَشِيَّةٍ
وَحَلَا الدُّبَابُ بِهَا فَلَيْسَ بِبَارِحٍ
هَزِجاً يَحْكُ ذِرَاعُهُ بِذِرَاعِهِ
تُمْسِي وَتُصْبِحُ فَوْقَ ظَهْرِ حَشِيَّةٍ
وَحَشِيَّتِي سَرَجٌ عَلَى عَبْلِ السُّوَى
هَلْ تُبْلِغُنِي دَارَهَا شَدَنِيَّةٍ

خَطَّارَةٌ . غِيبَ السَّرَى . زِيَاةً
 إِنْ تَغْدِقِ دُونِي الْفِنَاعَ فَلِإِنِّي
 أَنَّنِي عَلَى بَمَا عَلِمْتَ فَلِإِنِّي
 فَلِإِذَا ظَلِمْتُ فَإِنْ ظَلَمِي بِاسِلٌ
 وَلَقَدْ شَرِبْتُ مِنْ الْمُدَامَةِ بَعْدَمَا
 بَرُجَاجَةٍ صَفَرَاءَ ذَاتِ أَيْسَرَةٍ
 فَلِإِذَا شَرِبْتُ فَلِإِنِّي مُسْتَهْلِكٌ
 وَإِذَا صَحَوْتُ فَمَا أَقْصَرُ عَنْ نَدَى
 هَلَّا سَأَلْتُ الْخَيْلَ يَا ابْنَةَ مَالِكٍ
 إِذْ لَا أَرَأَى عَلَى رِحَالِهِ سَابِجٍ
 طَوْرًا يُعْرَضُ لِلطَّعَانِ وَتَارَةً
 يُخْبِرُكَ مِنْ شَهْدِ الْوَقَائِعِ أَنَّنِي
 فَأَرَى مَغَانِمَ لَوْ أَشَاءَ حَوَيْثُهَا
 وَمُدَجَّجَ كَرِيهِ الْكُمَاةِ نِزَالُهُ
 جَادَتْ يَدَايَ لَهُ بِعَاجِلِ طَعْنَةٍ
 فَشَكَكْتُ بِالرُّمَحِ الْأَصَمِّ ثِيَابَهُ
 وَلَقَدْ ذَكَرْتُكَ وَالرَّمَا حِ نَوَاهِلُ
 فَوَدِدْتُ تَقْبِيلَ السُّيُوفِ لِأَنَّهَا
 لَمَّا رَأَيْتُ الْقَوْمَ أَقْبَلَ جَمْعَهُمْ

تَطْسُ الْإِكَامَ بِذَاتِ خُفٍّ مِيشَمٍ
 طَبٌّ بِأَخْذِ الْفَارِسِ الْمُسْتَلِثِمِ
 سَهْلٌ مُخَالَفَتِي إِذَا لَمْ أَظْلَمِ
 مُرٌّ مَذَاقُهُ كَطَعْمِ الْعَلَقَمِ
 رَكَدَ الْهَوَاجِرُ بِالْمَشُوفِ الْمُعْلَمِ
 قُرِنْتُ بِأَزْهَرِ فِي الشَّمَالِ مُفْدَمِ
 مَالِي ، وَعِزِّي وَافِرٌ لَمْ يُكَلِّمْ
 وَكَمَا عَلِمْتَ شِمَالِي وَتَكْرِي ...
 إِنْ كُنْتُ جَاهِلَةً بِمَا لَمْ تَعْلَمِي
 نَهْدِ تَعَاوُرَهُ الْكُمَاةُ مُكَلِّمِ
 يَأْوِي إِلَى حَصْدِ الْقَيْسِيِّ عَرْمَمِ
 أَغْشَى الْوَعْيَ وَأَعِيفُ عِنْدَ الْمَغْنَمِ
 فَيَصُدُّنِي عَنْهَا الْحَيَا وَتَكْرِي
 لَا مُنْعِنَ هَرَبًا وَلَا مُسْتَسْلِمِ
 بِمُثَقِّفِ صَدَقِ الْكُؤُوبِ مُقَوِّمِ
 لَيْسَ الْكَرِيمِ عَلَى الْقَنَا بِمُحَرِّمِ
 مِثْنِي وَبَيْضُ الْهِنْدِ تَقْطُرُ مِنْ دِي
 لَمَعَتْ كِبَارِقِ ثَعْرُكِ الْمَتَبَسِّمِ
 يَتَذَامِرُونَ كَرَزْتُ غَيْرَ مُدَمِّمِ

يَدْعُونَ عَنَتَرَ وَالرَّمَا حُ كَانَهَا
مَا زِلْتُ أَرْمِيهِمْ بِغُرَّةٍ وَجْهِهِ
فَازَوْرٌ مِنْ وَقَعِ الْقَنَا يَلْبَانِيهِ
لَوْ كَانَ يَدْرِي مَا الْمُحَاوَرَةُ أَشْتَكِي
وَلَقَدْ شَفَى نَفْسِي وَأَبْرَأُ سُقْمَهَا
ذُلُّ رِكَابِي حَيْثُ شَتُّ بِمُشَايَعِي
وَلَقَدْ خَشِيتُ بَيَانَ أَمُوتَ وَلَمْ تَكُنْ
الشَّائِمَى عِرْضِي وَلَمْ أَشْتِمَهُمَا
إِنْ يَفْعَلَا فَلَقَدْ تَرَكْتُ أَبَاهُمَا
أَشْطَانُ بِشْرِ فِي لَبَانٍ إِلَاذْهُمْ
وَلَبْنَانِيهِ حَتَّى تَسْرِبَلْ بِالْدَمِ
وَشَكَآ إِلَى بَعْبَرَةٍ وَتَحْمَحُمِ
وَلَكَانَ لَوْ عَلِمَ الْكَلَامُ مُكَلِّمِي
قِيلُ الْقَوَارِسُ: وَيْكَ ، هَتَّتْ رَأْقَدِمِ
قَلْبِي ، وَأَحْفِزُهُ بِأَمْرِ مُبْرَمِ
لِلْحَرْبِ دَائِرَةٌ عَلَى ابْنِي ضَمْنَمِ
وَالذَّاذِرَيْنِ إِذَا لَمْ الْقَهْمَا دَمِي
جَزَرَ السَّبَاعِ وَكَلَّ نَسْرَقَشَعَمِ

وإننا ، ونحن نفرأ شعر عنترة بن شداد ، نشعر أننا أمام امرأة هي أشبه
شيء بهيلانة التي كانت سبب الحرب بين الإغريق وطروادة : وأنا أمام عيلة
التي يشور لأجلها البطل العربي ، ويحارب في سبيلها ، ويسفك الدماء أنهاراً ،
وأنا أمام بطل هو أشبه شيء بأخيل طيار الخطي ، الذي يعتزل الحرب لخلاف
نشب بينه وبين أغاممنون ويترك قومه عرضة للتلف ؛ وأنا أمام عنترة يعتزل
الحرب لخلاف نشب بينه وبين قبيلته ، لخلاف مرده إلى أن عنترة ابن أمة
لا يحق له الانتساب إلى قبيلته ولا يحق له الاقتران بابنة عمه ، ولا يحق له أن
يكون حراً . ولما اشتد الأمر على عبس وكاد يدركهم التلف صاحوا به : « ويك
عنترة أقدم ! » فيقدم عنترة حراً ، ويبدد جيوش الأعداء ، وينشر الذعر في
البلاد ، على جواد يكاد يتكلم ، وبسيف يجز الرؤوس ، ورمح يحترق الصلور ،
ويطير القلوب .

وترى في عنزة جميع الصفات التي كان يتحلى بها فرسان القرون الوسطى
من شجاعة وشرف وقتال في سبيل هدف أعلى ، ومناصرة للضعيف ، وحب
شديد عنيف لفتاة كريمة يعمل جهده في إرضائها ، وهو شاعر فياض القريحة
يلتهب حماسة ، فنظم الشعر يصف مواقفه ، وإذا تقاسم يقترب من نفس الملاحم ،
فهو يجعلنا في جوملحمى أبطاله سيف الشاعر ورجله وساعده ، وخوارقه أعمال
الشاعر التي يضحكها الخيال الخلاق ، ويغشى قصصها بالصور والألوان ،
فتتوالى على السمع والبصر في إيجاز بعيد عن التفصيل ، وفي موسيقى شديدة
الوقع ، ولغة وثابة فيها عزة الشاعر وثورته ومزاجه العصبي .

الحماسة في العهد العباسي

(١) دواعي الحماسة العباسية :

وقفت الفتوح في العهد العباسي ، وأخلد الناس إلى الأمن والراحة في أغلب الأحيان ، ولولا بعض الحروب والفتن لخدمت جدوة الشعر الحربي في العالم العربي ، أما تلك الحروب والفتن فرجعها إلى ما يلي .

قامت الدولة العباسية في أول عهدها على القوة ، واستعانت بالفرس خاصة والشعوبية عامة ، وبالعرب المناهضين للدولة الأموية ممن يناصرون الهاشميين ، فشالت كفة العرب والعروبة ورجحت كفة الأعاجم ، واقتصرت شأن العرب على أن يكونوا عنصراً من العناصر الكثيرة التي احتوتها الإمبراطورية ، وتغلغل الفرس في صلب الدولة . ولما نقلت العاصمة إلى بغداد تحول وجه الدولة عن البحر المتوسط ، وتوجه شطر فارس ، وأدخل الفرس على العرب سياسة الحكم المطلق ، وهكذا حاكى العباسيون الأكاسرة في تنظيم دولتهم ، ومالوا إلى الترف والرخاء ، واعتمدوا على من يقوم مقامهم في مباشرة الأعمال ، ففزعوا المناصب وأكثروا من الدواوين ، وأقاموا على الأقاليم البعيدة عمالاً يأمرهم وينهون ، من مثل جعفر ابن يحيى البرمكي ، الذي ولاه الرشيد المغرب كله من أنبار إلى إفريقية ، وأخيه الفضل بن يحيى الذي تولى الشرق كله من شروان إلى أقصى بلاد الترك .

ولم يقف العباسيون عند هذا الحد بل تجاوزوه شيئاً فشيئاً إلى إدخال الفرس والأتراك في جندهم ، فكان في الجيش فرقة خراسانية ، وكان في الجيش أيضاً عدد كبير من الفراغنة أي الأتراك ، جمعهم المعتصم من أسواق بغداد لحوفه على

نفسه من جنده ، فكانوا على الخلافة والدولة وبالأحرار ، وقد عملوا على دك أركانها وعلى نشر القوضى في البلاد .

ولم تخل البلاد ، في عهد بني العباس ، من حروب وفتن . أما في الداخل فقد نهضوا إلى قمع ثورات الراوندية مؤطى أبى مسلم الخراساني ، والزنادقة في العراق وفارس ، والعلويين مع ابن طباطبا ، والحرمية^(١) مع بابك ، وغيرهم من الذين قاموا في وجه الأمن والسلام . وأما في الخارج فقد أكثر الخلفاء من الصوائف والشواقي ، وهى الحملات والغزوات في الصيف والشتاء ؛ وقد اشتهر في ذلك أبو جعفر والمهدى والمعتصم ، فحاولوا غزو الممالك الملاصقة ولا سيما بلاد الروم .

وهكذا جرت في العهد العباسي مواقع تشبه أيام الجاهلية من حيث إنها أصبحت مستوحى الشعراء وموضوع أناشيدهم الحربية . ومن ذلك وقعة « أرشق » للأفشين على بابك الحريمي ، وقد تغنى بها أبو تمام وأشاد فيها بذكر الأفشين ؛ وكذلك وقعة عمورية للمعتصم على ملك الروم تيوفيل ؛ وثورة الزوج ودخولهم البصرة ، وقد سجل ابن الرومي تاريخها في شعره ، إلى غير ذلك من المواقع البرية والبحرية التي سنأتى على ذكرها في دراسة كل شاعر .

(ب) موضوعات الحماسة العباسية وميزاتها :

دار الشعر الحماسي في العهد العباسي حول وصف تعبئة الجيوش ، وزحفها ، ووصف الأسلحة والخيول والأساطيل والنصر وفرار العدو ، وما إلى ذلك . وقد تتبع الشعراء في هذا العهد أساليب الأقدمين ومعانيهم ، وزادوا على ذلك أن مزجوا الحكمة بالتصوير الفني وألفوا بين الوصف وحسن التعليل ، واهتموا للصياغة اهتماماً خاصاً ، كما اهتموا للتزييق والتهويل في الوصف والتصوير .

(١) ظهر بابك الحريمي في عهد المأمون نحو سنة ٧١٨ م .

(ح) نماذج من الحماسة العباسية :

اشتهر كثيرون في الشعر الحماسي لهذا العهد ، وإننا سنتقصر على ذكر أبي تمام وأبي الطيب المتنبي .

أبو تمام هو حبيب بن أوس الطائي ، وقد اهتم للحروب والفن التي نشبت في أيامه في شرق العراق وفي غربه ، ومن أهمها الحرب التي دارت بين بابك الخرمي والمعتصم . وقد خلع بابك الطاعة واعتصم في أرض البلد وإقليم أذربيجان ، فسير إليه المعتصم قائده الأفشين عملاً بوصاة أخيه المأمون قبل موته ، فسار إليه بجيش حسن الإهبة . ولما التقى الجيشان جرت بينهما مناوشات مختلفة لم تمكن أحدهما من الآخر ، إلى أن كان يوم « أرشق » فالتحم الجيشان تحاماً شديداً ، ولاذ بابك بالفرار فتبعته جماعة الأفشين وأدركته ليلاً ، فهجم الأبطال على الأبطال ، واصطدم الرجال بالرجال ، إلى أن افر الصباح ، والمعركة لا تزال حامية الوطيس ، وامتد النهار إلى أن كان الزوال ، فسقط من جماعة بابك عدد كبير ونشرد الباقيون ، وقبض على بابك وقيد إلى المعتصم مغلولاً ، فقتل شر قتلة . واستقبل الأفشين أحسن استقبال ، وأدخل إلى القصر في اعتزاز ، وبذلت له الأموال والجواهر ، وأدخل عليه الشعراء بمدحونه .

وقد نظم أبو تمام في فتنه بابك الخرمي شعراً كثيراً ، من أروع قصيدة لامية قالها في انتصار الأفشين ، وصور حال الناس القلقة من جراء بطش بابك وسطوته في البلاد ، ثم راح يصف يوم أرشق وما جرّ من الوبال على ذلك الداهية الذي مات المأمون وهو عاجز عنه ، والذي دوّخ البلاد بجيش جمعه من الترك والفرس وكل من نعم على بني العباس ؛ وراح أبو تمام يتتبع الموقعة ، ويحدد زمانها ومكانها بدقة ، ويذكر حركات الجيشين وقد استبسلا استبسلاً عظيماً ، ويتدفق مع المسلمين تدفقاً عاطفياً جباراً ، ويرسل مع كل لفظة حمماً من بركان

نفسه ، ويحمل كل عبارة ما لا تطيق من المعاني الحربية الشديدة ، ومن الأخيلة الضخمة ، ومن الموسيقى التهويلية ، ومن المقارنات اللفظية والمعنوية المؤثرة ، ويقول :

يا يَوْمَ أَرَشَقَ كُنْتَ رُشَقَ مَنِيةً للخرمية ، صائبَ الآجالِ
أَسْرَى بنو الإسلامِ فِيهِ وَأَذَلُّوا بقلوبِ أسدٍ في صدور رجالِ
لَمَّا رَأَوْهُم بَابَكَ دُونَ الْمَنَى هَجَرَ الْغَوَايَةَ بَعْدَ طُولِ صِيَالِ
يَوْمٌ أَضَاءَ بِهِ الزَّمَانُ وَفُتِحَتْ فِيهِ الْأَسِنَّةُ زَهْرَةَ الْأَمَالِ
وَسَرَوْا بِقَارِعَةِ الْبِيَاتِ فزَحْزَحُوا بِقِرَاعٍ لَا صَلَيفٍ وَلَا مُخْتَالِ
نَزَلَتْ مَلَائِكَةُ السَّمَاءِ عَلَيْهِمْ لَمَّا تَدَاعَى الْمُسْلِمُونَ : نَزَالِ
لَمْ يُكْسَ شَخْصٌ فَيْشُهُ حَتَّى رَمَى وَقْتُ الزَّوَالِ نَعِيمَهُمْ بِزَوَالِ
فَالْبَلْدُ أَغْبَرُ دَارِسُ الْأَطْلَالِ بَيْدِ الرَّدَى أَكْلٌ مِنَ الْآكَالِ
أَلَوْتُ بِهِ ، يَوْمَ الْخَمِيسِ ، كَتَائِبُ أَرْسَلْنَاهُ مِثْلًا مِنَ الْأُمُثَالِ
كَمْ صَارِمٍ عَضِبَ أَنْفٌ عَلَى فَتَى مِنْهُمْ لِأَعْبَاءِ الْوَعَى حِمَالِ
سَبَقَ الْمَشِيبُ إِلَيْهِ حَتَّى ابْتَزَّهُ وَطَنَ النُّهَى مِنْ مَقَرِّقٍ وَقْدَالِ
قَاسَى حَيَاةَ الْكَلْبِ إِلَّا أَنَّهُ قَدْ مَاتَ صَبْرًا مِيتَةَ الرُّبَالِ

وهكذا يسير أبو تمام في ملحمة الحربية من مشهد إلى مشهد ، متمثلاً ، هائج العاطفة ، هائج الخيال ؛ ينتصب أمام ذلك اليوم بكل شطاظه ، فيناجيه ، ويشخصه ، ويكاد يتشهى لذكراه ، ويحار كيف يصوره ، فينتزع الصور من الألفاظ انتزاعاً ، ويقم التنازع بين الألفاظ والوجوه التعبيرية والبيانية ، وإذا أنت أمام قصيدة قد تدرعت ألفاظها ، وتتابع أبياتها ، جيوشاً جيوشاً ، تقودها العاطفة الصاخبة على أجنحة خيال أشد من الخيول

انطلاقاً ، وإذا أنت أمام حرب مشخصة أحسن تشخيص .

ومن الأحداث الكبرى التي شغلت أبا تمام وفجرت قريحته الشعرية فتح عمورية ، وذلك أن الروم اغتتموا فرصة انشغال العرب بحروب بابل ، فجهز تيوفيل إمبراطور الروم سنة ٨٣٧ م جيشاً عظيماً من مائة ألف مقاتل ، وزحف به قاصداً بلاد العرب ، ففتح زبطرة وأعمل السيف في رقاب أهلها ، كما أعمل النار في ديارها ، واستاق إلى القسطنطينية مالاً وغنائم ، ولما بلغ الخبر أذن الخليفة ارتاع له ، وهب من ساعته فعبأ العسكر ، ونادى بقواده الكبار من مثل الأفشين ، وبغا ، وأشناس ، وجعفر بن دينار ، وقسم جيشه كراديس ، وجهزه بالعدة والسلاح ، وكان على أهبة السير إلى عمورية حين نهض المنجمون ونهوه عن الحرب احتساباً منهم أنه طالع نحس ، وأن عمورية لن تفتح إلا في وقت إدراك التين والعنب ، فلم يعأ المعتصم بذلك بل زحف زحفاً شديداً ، حتى بلغ عمورية وحاصرها حصاراً شديداً مدة خمسة عشر يوماً ، ورى أسوارها وأبراجها بالمجانيق وسائر الآلات الحربية المعروفة لذلك العهد ، فخرت الأسوار وانهار الجيش العربي على المدينة ، وقتل من الروم خلقاً كثيراً ، واستاق عدداً من القواد كما رجع بجال وغنائم . وقد اهتزت البلاد لتلك الموقعة اهتزازاً شديداً واهتزت قريحة أبي تمام اهتزازاً عنيفاً ، وانتصب في سامراً يمدح المعتصم ويصف الموقعة ويقول :

السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ	فِي حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْجِدِّ وَاللَّيْبِ
بَيْضُ الصَّفَائِحِ لَأَسْوَدُ الصَّحَائِفِ فِي	مُتَوْنِهِنَّ جَلَاءُ الشَّمَكِ وَالرَّيْبِ
وَالْعِلْمُ فِي شُهْبِ الْأَرْمَاحِ لَا مِعةَ	بَيْنَ الْخَمِيسَيْنِ لَا فِي السَّبْعَةِ الشُّهُبِ
أَيْنَ الرُّوَايَةِ بَلْ أَيْنَ النُّجُومِ وَمَا	صَاغُوهُ مِنْ زُخْرِفٍ فِيهَا وَمِنْ كَذِبِ
تَخَرُّصًا وَأَحَادِيثًا مُلْفَقَةً	لَيْسَتْ بِنَبْعٍ ، إِذَا عُدْتُ ، وَلَا غَرَبِ

يا يَوْمَ وَقَعَةٍ عُمُورِيَّةٍ أَنْصَرَفَتْ
لَقَدْ تَرَكْتُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِهَا
غَادَرْتُ فِيهَا بِهِمَ اللَّيْلِ وَهُوَ ضَحَى
حَتَّى كُنَّا جَلَابِيبَ الدُّجَى رَغَبَتْ
ضَوْءُ مِنَ النَّارِ ، وَالظُّلُمَاءُ عَاكِفَةٌ
فَالشَّمْسُ طَالِيعةٌ مِنْ ذَا ، وَقَدْ أَفَلَتْ
تَذِيرٌ مُعْتَصِمٌ بِاللَّهِ مُنْتَقِمٌ
لَمْ يَغْزُ قَوْمًا ، وَلَمْ يَنْهَدْ إِلَى بَلَدٍ ،
لَوْ لَمْ يَقْدَحْ جَحْمًا يَوْمَ الْوَعَى لَغَدَا
عَنْكَ الْمُنى حُفْلًا مَعْمُولةَ الْحَلِيبِ
لِلنَّارِ يَوْمًا ذَلِيلَ الصَّخْرِ وَالْخَشَبِ
يَشُدُّهُ وَنُطْطَاهَا صُبْحٌ مِنَ اللَّهَبِ
عَنْ لَوْنِهَا ، أَوْ كَأَنَّ الشَّمْسَ لَمْ تَغِبْ
وَبُلْغَةُ مِنَ دُخَانٍ فِي ضُحَى شَجَبِ
وَالشَّمْسُ وَاجِبَةٌ فِي ذَا ، وَلَمْ تَجِبْ
لِلَّهِ مُرْتَقِبٌ فِي اللَّهِ مُرْتَهَبٌ
إِلَّا تَقْدَمُهُ جَيْشٌ مِنَ الرُّعْبِ
مِنْ نَفْسِهِ وَخَدَهَا فِي جَحْمَلٍ لَجِبِ

هذه أبيات من القصيدة الطويلة التي نظمها أبو تمام في فتح عمورية ، وقد حلق فيها تحليق النسر ، وحاول أن يربط الأحداث التاريخية بأهداب عاطفته الجياشة ، وأن ينطلق مدوياً ، مصوراً ، راسماً بريشته الآفاق والأجواء ، وإذا أنت أمام مشهد هول تقشعر له الأبدان ، وإذا أنت في ليل من عجاج وظلام ، وفي نهار من لب ونيران . وإذا النيران تمتد وتلتهم وتتصاعد في الجو لهاً ودخاناً ، وإذا أنت أمام شاعر يمزج الحقيقة بالعاطفة الهدارة ، والخيال الحربي المندفع ، فيكثر من الطباق والجناس ، ويكثر من استعمال الألفاظ الشديدة الوقع ، وإذا الأبيات كتائب كتائب ، والعبارات صلصلة سيوف ورماح .

وهكذا يتجلى أبو تمام رجل حماسة ورجل اندفاع ، ينظم وهو شديد الانفعال ، شديد التطلب للتفكير المركب ، والصور المتناقضة المركبة في تناقضها ، والعبارات المحبوكة حبكاً معقداً ، والحافلة بالموسيقى الهدارة وبكل غريب صادع .

وإنه ليضيق بنا المقام لو أردنا تتبع أبي تمام في شعره الحماسي الكثير ، وإننا نكتفي بما أوردنا لما فيه من الدلالة على ما لم نورد .

أما أبو الطيب المتنبي ، وقد أتينا على ذكره في باب الفخر الذاتي ، فهو شاعر الحماسة الحمدانية ، وقد فسحت له البيئة مجالاً واسعاً لذلك ، لأن حروب الحمدانيين مع الروم دامت نحو ستين عاماً ، وكان لها أصداء واسعة في طول البلاد وعرضها . وقد استخلص الدكتور زكي المحاسني من كتابات المؤرخين أوصاف جيشي الروم والعرب فقال : « إن جند سيف الدولة كانوا مغاوير محيين للجرب . . . ولم يكن لباس الجندى العربى مختلفاً عن لباس الجندى اليوناني ، الذي سلاحه قوس ونبل ودرع ومزراق وسيف وفأس للمعركة ، وإلى ذلك مغفر يستر الرأس ، ودرع من المعدن تغطي الجذع ، وجانيبات تستر جليه والساعدين ، ومقاود من الفولاذ للخيول . وكانت أغماد السيوف العربية مرصعة بالفضة ، وسروج الخيول الغربية مثل سروج خيول الروم . وكان العرب زمن سيف الدولة يلبسون ضروباً من الدروع اسمها الجوشن تغطي القوس . . . ولم يكن شيء يختلف بين الروم والعرب في نظام الحرب سوى الهجوم ، فإن الروم تعودوا مع البلغار والروس الهجوم المنظم بخلاف العرب . أما باقي فنون الحرب فكانت متشابهة كل التشابه عند الفريقين . . . ولم يكن العرب مثل جنود البيزنطيين ينقلون أداة حروبهم على العجل والدواب وإنما كانت الإبل لحمل أثقالهم . وما كانوا ، ورحى المعركة تدور ، ليستعينوا بالطبل الكبير أو القرون النافخة ، وإنما كانوا يقرعون على طبول صغيرة قرعاً عاجلاً متتابعاً . وهم إذا ساروا قلقلوا أقتابهم وعدتهم فزحف جيشهم مزيناً بالأعلام الملونة على رؤوس الرماح قصاصات مضفورة تلوح فوق رماحه المنصوبة التي لا ينتهي الطرف إلى مداها . وكانوا جميعاً مزينين بهذه الأعلام الملونة ، وهم إذا ساروا وثار الغبار وراءهم ، ترنموا في مسيرهم بأغان مقرونة بصوت الطبل الغامض المهيم وقرع الصنوج ، وكان الفرسان المسلحون ،

لكي يسرعوا في السير ، يزحف مع كل فارس منهم جندي راجل وراءه .

أما أهم المعارك التي جرت بين سيف الدولة والروم فمعركة خرشنة ، ومعركة الحدث الحمراء ، ومعركة الدرب وقد سجلها المتنبي في شعره أروع تسجيل .

أما معركة خرشنة فقد جرت سنة ٩٥٠ م وهي مزدوجة ، بدأت بفوز العرب على الروم ثم بفوز الروم على العرب ، وقد اتخذ الطرفان الحيلة الحربية طريقاً إلى النصر ؛ أما العرب فقد ساروا بجيش جرار ، وكنوا في بطن اللقان بالقرب من خرشنة ، وتقدم سيف الدولة بسرية واحدة يريد الدمستق وجيشه ، فحسب الدمستق أن جيش العرب قليل العدد والعدد فهاجمه بعسكره مهاجمة عنيفة ، ولم يحسب للطوارئ حساباً ؛ وفيما هو كذلك ثار عسكر العرب الكامن في كل مكان وانتفضت الأرض عن رجال وأسلحة ملأت الآفاق ، وإذا الضربة هائلة ، وإذا الروم في انحطام شديد ، وإذا العرب على طريق العودة في نشوة أنسهم أن الروم جمعوا صفوفهم ، وكنوا لهم في طريق ضيقة وانهاهوا عليهم ضرباً وتقتيلاً ، ففروا إلى بلادهم هارين . ولما وصلوا إليها وقف المتنبي مبوقاً بوق الظفر ، مشيداً ببطولة رجال أمير حلب ، وراح يصف تلك المعركة ، ويتتبع حركات الزحف العربي ، ويصف ضعف نظر الدمستق في الأمور ، وانكسار الروم ، وبسالة الجيش العربي ، ويعمن في وصف الخيول ، ويخرج من الهزيمة الأخيرة بنصر معنوي للأمبر العربي ، ويقول :

غَيْرِي بِأَكْثَرِ هَذَا النَّاسِ يَنْخَدِعُ	إِنْ قَاتَلُوا جَبَنُوا أَوْ حَدَّثُوا شَجَعُوا
وَالْمُشْرِفِيَّةُ لَا زَالَتْ مُشْرِفَةً	دَوَاءُ كُلِّ كَرِيمٍ أَوْ هِيَ أَلْوَجَعُ
وَفَارُسُ الْخَيْلِ مَنْ خَفَّتْ فَوْقَهَا	فِي الدَّرْبِ وَالْدَّمُ فِي أَعْطَافِهِ دُفِعُ
بِالْجَيْشِ تَمْتَنِعُ السَّادَاتُ كُلُّهُمْ	وَالْجَيْشُ بَابِنِ أَبِي الْهَيْجَاءِ يَمْتَنِعُ
قَادَ الْمُقَانِبَ أَقْصَى شُرْبِهَا نَهْلُ	عَلَى الشَّكِيمِ وَأَذْنَى سَيْرِهَا سَرْعُ

وأما معركة الحدث الحمراء ، فقد جرت بعد أن هدم الروم ذلك الثغر وقوّضوا أركانه ، وبعد أن باشر سيف الدولة إعادة البناء . فقد هاجمه الروم ، وهو في حومة العمل ، وعلى رأسهم برداس فوكاس . ونشبت الحرب هائلة بين الفريقين ، ودامت من طلوع الشمس إلى غروبها ، وأسفرت أخيراً عن فوز الجيش العربي . ولم يترك سيف الدولة مدينة الحدث حتى أتم بناء سورها سنة ٩٥٤ م . فتناول المتنبي ذلك الحادث العظيم ونظم فيه ميمته الشهيرة :

على قَدْرِ أَهْلِ الْعِزْمِ تَأْتِي الْعِزَائِمُ وَتَأْتِي عَلَى قَدْرِ الْكِرَامِ الْمَكَارِمُ

وقد افتتح القصيدة بإظهار عظمة سيف الدولة وما في قلبه من شجاعة وهمة ، ثم انتقل إلى الحدث وإذا هي حمراء من دم الأعداء ، وإذا سيف الدولة يبنها في حومة الوغى ، والروم يهاجمون بجيش جرار ، تجمع فيه كل لسن وأمة ، بجيش يغطيه الحديد ، وتتصاعد زمازمه إلى أعلى الفضاء :

أَتَوْكَ يَجْرُونَ الْحَدِيدَ كَأَنَّمَا سَرَوْا بِجِيَادٍ مَالَهُنَّ قَوَائِمُ
إِذَا بَرَقُوا لَمْ تُعْرِفِ الْبَيْضُ مِنْهُمْ ثِيَابُهُمْ مِنْ مِثْلِهَا وَالْعِمَائِمُ
خَمِيسٌ بِشَرْقِ الْأَرْضِ وَالْغَرْبِ زَحْفُهُ وَفِي أُذُنِ الْجَوَازِ مِنْهُ زَمَازِمُ
تَجْمَعُ فِيهِ كُلُّ لِسَنٍ وَأُمَّةٍ فَمَا يُفْهِمُ الْحُدَاثَ إِلَّا التَّرَاجِمُ

والتحم القتال شديداً ، ودارت الدوائر على جيش الروم ، فوقف سيف الدولة باسمها ، وقد ضم جناحي العدو على القلب ضمة عنيفة ، وراح يطلق الضربات إثر الضربات ، واستغنى عن الرماح بالسيوف :

وَمَنْ طَلَبَ الْفَتْحَ الْجَلِيلَ فَلَنَدَمَا مِفَاتِيحُهُ الْبَيْضُ الْخِفَافُ الصَّوَارِمُ

وهنا وقف المتنبي يصف في هياج ظاهر ، وفي لهجة مطوية على الإعجاب .

بالعظمة والبطولة ، وإذا ألفاظه متجالدة ، وحروفه مدوية ، ومعانيه متتابعة
تتابع السيل الجارف ، في غلو خيالي لا يحده حد ، حتى قال واصفاً الجليل :
إِذَا زَلِقَتْ مَشْيَتَهَا بِبُطُونِهَا كَمَا تَتَمَشَّى فِي الصَّعِيدِ الْأَرَاقِمُ

وهكذا انتهت المعركة بقصيدة ليست دون المعركة هولاً وخلوداً :

وأما معركة الدرب . فخرج أسبأها إلى أن البطريق أقسم عند ملكه أنه
يعارض سيف الدولة في الدرب ، وسأله أن ينجده ببطارقه وعدده وعدده ،
ف فعل ، فخاب ظنه . واندحر واندحرت معه جيوشه ، وكانت هذه المعركة آخر
المعارك الظافرة لسيف الدولة على الروم ، فنظم المتنبي فيها قصيدة كانت آخر
ما أنشده بحلب . ومطلعها :

عُقْبَى الْيَمِينِ عَلَى عُقْبَى الْوَعَى نَدَمٌ مَاذَا يَزِيدُكَ فِي إِقْدَامِكَ الْقَسَمُ

وقد تناول المتنبي قسم البطريق وراح يبين له كيف حلف على الظفر بسيف
الدولة ، فاضطره إلى نقض عيمته فتي أراه من شدة الضرب ما أذهله عن قسمه
وأنساه كلامه ووعدده ، فتي تكل السيوف . وهو لا يكل :

كُلُّ السُّيُوفِ إِذَا طَالَ الضُّرَابُ بِهَا يَمَسُّهَا - غَيْرَ سَيْفِ الدَّوْلَةِ - السَّامُ

ففي ظن الروم أنه كالمصباح في حلب إذا فارقتها إليهم أظلمت وانتقض
أهلها عليه وشقوا عضاً الطاعة ، ولم يعلموا أنه الشمس التي تعم كل مكان بنورها ،
وقد مشى إليهم بجيش بعيد الأطراف ، ونخيل حميت حدائد لجمها من شدة
الحر ، حتى كوتها الحكم كالمياسيم ، ولما وصل إلى سمين وردت خيوله بجيرتها
فسمع للجمها نشيش عندما أصابها الماء وأطفأ حرارتها ! ثم انتقل إلى قرى هنريط
فجالت الخيل فيها للغارة والقتل ، وجالبت السيوف لتقطيع الرؤوس ، فهرب

العلو واجتاز نهر أرسناس عله يجد ملجأ ، فلم يجد ، لأن خيول الجيش العربي أصبحت سفناً تمخر في عباب النهر ، مندفعة أشد اندفاع .

وها هو ذا المتنبي في حومة القتال يطلق صوته ويقول مخاطباً أمير حاب :

صَدَمَتْهُمْ بِخَمِيسٍ أَنْتَ غُرَّتْهُ	وَسَمَّيْتَهُ فِي وَجْهِهِ غَمَمٌ
فَكَانَ أَثْبَتَ مَا فِيهِمْ جُسُومُهُمْ	يَسْقُطْنَ حَوْلَكَ وَالْأَرْوَاحُ يَنْهَزِمُ
وَالْأَعْوَجِيَّةُ مَلَأَ الطُّرُقَ خَلْفَهُمْ	وَالْمَشْرِفِيَّةُ مَلَأَ الْيَوْمَ فَوْقَهُمْ
إِذَا تَوَافَقَتِ الضَّرَبَاتُ ضَاعِدَةً	تَوَافَقَتْ قُلُلٌ فِي الْجَوِّ تَضْطَلِدُ

وهكذا ينطلق المتنبي في جيشان عاطفة وثورة خيال ، وهكذا ينتتم ملحمة الحمدانية بقصيدة هي من أروع قصائده ، وهكذا « نخلد ذكر الحروب ، ووصف تلاوين القروسية وتهاويلها ، في دنيا الحمدانيين مع الروم ، وكتب بيده أكبر ملحمة للعرب والإسلام بأفخم أسلوب وأعذب بيان » .

شعر الحماسة بعد أبي الطيب المتنبي

واصل الشعر الحماسي سيره بعد أبي الطيب ، فكان عند أبي فراس الحمداني ثورة نفسية ممزوجة بذل الأسر ، وكان عند صفي الدين الحلي انتفاضة شديدة ، ولا سيما في قصيدته النونية المشهورة التي أصبحت نشيد القومية العربية من بعده ، وكان عند ابن هاني الأندلسي وعند الشيخ ناصيف اليازجي تقليداً لشعر المتنبي ، وكان عند محمود سامي البارودي انطلاقات عسكرية ، وكان عند أحمد شوقي و خليل مطران نماذج تاريخية اجتماعية ، وكان في كل دولة عربية أناشيد قومية وتنفسات تحررية . وإنه لا يسعنا التناول في مثل هذا الكتيب ، ولنا في ما بسطناه نماذج كافية على ما فطرت عليه الروح العربية وعلى ما تصبو إليه ، ثم على ما قامت به من جليل الأعمال في ميادين البطولة ومجالات المجد والخلود . وعلى ضيق المجال ليس لنا بد من كلمة نقولها في شاعر معاصر هو في نظرنا أبو الملحمة العربية الحديثة ، وهو في نظرنا القمة التي وصل إليها الشعر الملحمي الواعي ، والشعر الملحمي الموسوعي ، والشعر الملحمي الذي يحمل ثقافة عصور ، وفلسفة دهور ، والشعر الملحمي الذي يعالج قضايا العرب الاجتماعية في حر نار وفصاحة نور ، والشعر الملحمي الذي يوجه ويقود في بلاغة عربية أصيلة ، وفي بيان عربي رائع ، وفي مراعاة شديدة لنظام القصيدة العربية الكلاسيكية ، وفي تدفق ينبوعي يضطرب في لون محلي ، وفي تنوع غني ، وفي جو من البطولة المعنوية والبطولة المادية . أما ذلك الشاعر فهو « بولس سلامة » ، وأما ملحمة الكبرى فهي « ملحمة عيد الرياض » التي ظهرت في هذه الأيام الأخيرة ، ونحن آخذون في طبع هذا الكتيب ، والتي نظمها صاحبها في مدة ثمانية أشهر ،

واستغرق طبعها نحو عشرة أشهر والتي وقعت في نحو ٦٠٠ صفحة من القطع الكبير ، وفي نحو ثمانية آلاف بيت من الشعر ، كلها على البحر الخفيف .

كان الشاعر بولس سلامة قد أتحف البلاد العربية بملاحمة « عيد الغدير »
وها هوذا يتحفها اليوم بملاحمة « عيد الرياض » ، وقد تغنى في الأولى بالإمام
على ، وتغنى في الثانية بما ثرا بن سعود لما لقي فيه من بطولة تلتحق بعالم الخوارق ،
وسخاء حاتمى ، وذكاء فطرى لماح ، وعدل وحلم ووفاء ، واتضاع وخفض
جناح ، ورقة وتقوى .

قال بولس سلامة في مقدمته : « ولعمري إن هذه الملحمة لترتفع عن الخدانة
اليومية وجرى المعتاد ، ولا يقع مثلها على رصفات الشوارع أو فوق أدراج الفنادق
كل يوم ، بل لم يقع مثلها في أيام العرب . فأين منها حرب البسوس ، أو حرب
داحس والغبراء ؟ فإن عنزة ، على شجاعته ، في زمن يقي فرسانه دروع وأتراس ،
لا يوازي ابن سعود فاتحاً صدره للرصاص والقنابل ، بل أين منها حرب طروادة
نفسها ، لولا الخيال الهوميرى الذى لم يقتصر على إنزال آلهة اليونان إلى المعمعان ،
بل غمر بالآلوهة أبطاله . فإذا كان لأمة الإغريق أن تباهينا بعبقرية شاعرها
وإبداعه في الخلق والاختلاق ، فإننا نباهينا ببطلولة عبد العزيز التى لا يضبرها
صدق الواقع » .

ومن ثم فقد اعتمد الشاعر الأصل التاريخى ، وراح يلقى عليه من شخصيته
القوية ، وصادق انفعالاته ، وروعة خياله ، ما رفعه إلى مستوى عال من العوالم
الملحمية . وراح الشاعر يسرد الأحداث التاريخية المتعلقة بابن سعود ، وراح
يمزج السرد بانفعالات شعرية ، واستطرادات وجدانية ، وما إلى ذلك مما يريح
القارئ والسماع ، وراح ينظم القصائد الطويلة في جزالة وسهولة عجيبتين ، وفي تدفق
شعرى رائع ، وهو كلما أطال أجاد ، وكلما تدفق ازداد انفجاراً ، وكلما انفجر
سبح شعره في عالم من الروعة الأخاذة ، التى تجمع البداوة إلى الحضارة والفطرة ،

إلى الفلسفة والحكمة وعلوم الاجتماع . وهكذا كانت ملحمة عيد الرياض موسوعة تاريخية فلسفية ، وهكذا كانت مزيجاً من إيمان وحماسة ؛ وهكذا كانت صلبة سيوف ، ورفرفة أجنحة ، وخفقة قلب حى ، وجمالاً شعرياً على كل حال . وإليك نموذجاً من نشيدها الأول ، وعنوانه « أحلام الجزيرة » :

بَعَثَ الْحَرْبَ «دَاحِشٌ» فَاسْتَطَارَتْ	وَأَمَدَّتْ بِالْعِشِيرِ «الْمَغْبَرَاءُ»
أَمْطَرَتْ خَارَهَا نَجِيعاً وَدَمْعاً	وَمِنْ الْحَافِرَيْنِ ذَرَّ الْبَلَاءُ
وَبَنُو «الْعَبَسِ» جَمْرَةُ الْعُرْبِ لَوْلَا	عَنْتَرٌ لَاعْتَرَى سَنَاها انْطَفَأَ
إِذْ يُنَادُونَ وَيَلْكُ عَنْتَرٌ أَقْدِمُ	وَعَزِيزٌ عَلَى التَّجِيدِ النَّدَاءُ
الْمُرَوَّعَاتُ فِي دِمَاهِ اسْتَجَابَتْ	وَأَسْتَشْطَاطُ الْفَوَادِ وَالْأَحْنَاءُ
وَتَنْشَرَّتْ أَوْدَاجُهُ وَالْجُفُونُ الـ	حُمُرُ أَجَّتْ قِدُونُهَا الرَّمْضَاءُ
فَرَمَى فِي الْعَجَاجِ مُهْرًا قَتَاماً	كَانَ لَيْثاً فَحَمَرَتْهُ الدِّمَاءُ
قُنْفُذًا عَادَ مِنْ وَقُوعِ السُّهَامِ الزَّ	رَقِ غَصَّتْ بِسَيْلِهَا الْأَعْضَاءُ
كَأَذْ يَبْكِي مِنَ الْجَرَاحَاتِ لَوْلَا	أَنَّ فِي سَرَّجِهِ أَسْتَقَرَّ الرَّجَاءُ
فَتَعَجَّبَ لَأَذْهَمِينَ أَطْلَتْ	مِنْهُمَا فِي الْمَاعِمِ الْأَضْوَاءُ
قَدْ يَذُرُّ الضِّيَاءُ مِنْ جَنَحِ لَيْلٍ	وَمِنْ الْخَيْرِ قَدْ يَطْلُ الشَّقَاءُ
لَمْ يَرُوعْ «أَبَا الْفَوَارِسِ» جَيْشٌ	كُلُّمَا ازْدَادَ زَادَ مِنْهُ الْمَضَاءُ
خَلْفَهُ طَرْفُ عِبِلَةٍ وَلَكَمَاهَا	فَالْمُنَايَا لَطَرْفُهُ إِغْرَاءُ !

فهرس

صفحة

٥	مقدمة
٩	الفصل الأول : الفخر الذاتي
١١	في الجاهلية :
١٢	— فخر الصعاليك
١٥	— فخر الشعراء القريسان
١٧	— فخر الأمراء وشعراء البلاط
٢٣	في العهد العباسي :
٢٤	— فخر المجددين
٢٧	— فخر العودة إلى القديم
٢٩	— فخر شعراء الإمارات
٣٧	الفخر الذاتي بعد العهد العباسي
٣٨	الفصل الثاني : الفخر الحزبي
٤٠	— شعر الخوارج
٤٠	— شعر الشيعة
٤١	— شعر الزبيريين

صفحة

٤٢	— شعر الأمويين
٤٤	— شعر المثلث الأموي
٤٩	الفصل الثالث : الفخر الديني أو الحماسة الدينية :
٥٣	الفصل الرابع : الفخر الحماسي :
٥٦	— الحماسة في الجاهلية
٧٩	— الحماسة في العهد العباسي
٩٠	— شعر الحماسة بعد أبي الطيب المتنبي

١٩٩٢ / ٥٧٠٩	رقم الإيداع
ISBN 977-82-3758-2	الترقيم الدولي

١ / ٩٢ / ٥٧

طبع بطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

مجموعة فنون الأدب العربي



لقد قصد من هذه المجموعة أن تجلو للقارئ العربي ألواناً من الفنون الأدبية التي عالجها الأدب العربي في مختلف أقطاره وعصوره . فهي تتقف أمام كل فن أدبي فتعالجه في جزء أو أكثر من هذه السلسلة التي سيجتمع فيها محصول وافر من فنون الأدب المختلفة التي تكون في مجموعها ذلك الهيكل الأدبي الضخم الذي شيدته العربية في تاريخها الطويل . .

وفضل هذه المجموعة أنها تعالج الأدب العربي لا على طريقة السنن ، ولا على طريقة التقسيم إلى عصور كما ألفنا في كتب التاريخ الأدبي . . . ولكنها تعالج الأدب على مدى ما اتسع فيه من فنون . . . فللمقامة موضوع ، وللقصة موضوع ، ولللغزل موضوع ، وللوصف موضوع . . . وهكذا ستكون هذه المجموعة على قدر ما في الأدب العربي من فنون .

صدر منها :

- في الفن الغنائي : الغزل (جزءان) ، الرثاء ، الوصف ، المديح ، الفخر والحجاسة ، الهجاء ، الموشحات والأزجال .
- في الفن القصصي : المقامة ، التراجم والسير ، الرحلات ، الترجمة الشخصية .
- في الفن التمثيلي : المسرح .
- في الفن التعليمي : النقد ، الخطب والمواعظ ، الحكم والأمثال .

تحت الطبع :

- في الفن الغنائي : الزهد والتصوف .
- في الفن القصصي : الملحمة ، القصة ، الحكاية والأقصوصة .
- في الفن التمثيلي : الفاجعة والمأساة ، الملهة .
- في الفن التعليمي : منظومات الشعر .